



من الشرق والغرب
نافذة على الفكر العالمي الحاضر

روزگار و محبت

بقلم: بول ريبو
ترجمة: حبيب عاماني



من الشرق والغرب

قصة رينو ووليد

من كتاب العائقان اللذان
فقدوا شريكهما...

بقلم: بول ريبو
ترجمة: جيب جاماني

مقدمة

قصة روميو وجولييت مزيج من الاسطورة والتاريخ، والحقيقة والخيال . قصة فتى وفتاة عاشقين ، رواها كتاب وتغنى بها شعراء، جيلا بعد جيل ، منذ القرن الرابع عشر الى أيامنا هذه : مازوتشيو دى سالرنو ، لويجي دا بورتو ، دانتي البجيري ، كليزيادى فيروني، ماتيو بانديللو ، آرثر بروك وغيرهم . وجعل شكسبير من مأساة العاشقين اللذين راحا ضحية الحب ، موضوعا لأحدى مسرحياته الخالدة ، بعنوان « روميو وجولييت » ، وهى أدروع ماجادت به القرائح وسطوته الأقلام ، فى هذا الموضوع . وقد ظهرت مسرحية شكسبير فى آخر القرن السادس عشر . واقتبس منها جول باربيين وميشيل كارى ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، موضوع رواية غنائية وضع موسيقاها شارل جونو .

وترجمت المسرحية الى العربية بعنوان « شهداء الغرام » ومثلتها بالقاهرة ، فى أوائل القرن الحالى ، فرقة الشيخ سلامة حجازى . وبها أناشيد وقصائد لحنها وغناها ذلك النابغة العظيم ، الذى قام فى المسرحية بدور العاشق روميو . منها قصيدة مطلعها :

سلام على حسن يد الموت لم تكن
لتمحوه أو تمحو هواه من القلب ..
وأخرى مطلعها :

عليك سلام الله ياشبهه من أهوى
فياحبذا لو كنت تسمع لى شكوى

وكان صوت الشيخ سلامة حجازى ينتزع الدموع من الملقى فى أكثر من مقطع واحد من تلك الألحان ، نذكر منها هنا ، مثلا ، نداء الحبيب لحبيبته الراقدة بلا حراك : « أجولييت ما هذا السكون؟ .. »

ومأساة روميو وجولييت من الموضوعات التى تلقفها فن السينما فقد أخرجت على الشاشة فى أفلام عديدة ، فى عهدى السينما الصامت والناطق ، وأخيرا بالألوان الطبيعية .

وأصبح اسما روميو وجولييت ، على كر الايام ، رمزا للحب الجارف والوفاء له حتى الموت، كما أصبح اسما أسرتهما المتخاصمتين رمزا للحقد والعداء .

وفى مدينة « فيرونا » بمقاطعة البندقية - فينيسيا - بإيطاليا، بيت قديم يؤكد السكان انه البيت الذى عاشت فيه جولييت ، وأن

شرفته الصغيرة المظلة على الشارع الضيق ، هي التي كانت الفتاة العاشقة تناجى منها فتاها المتيّم .

وفى قبر دير الرهبان الفرنسيّسكان ، بالمدينة التاريخية ، نعش مصنوع من المرمر ، يؤكد الناس أيضا أنه كان يضم رفات العاشقين .

والقبر والبيت من الآثار التي تجلب السائحين الى فيرونا . وقد أتحت لى الفرصة لزيارتهما ، فأصغيت الى حارس القبر وهو يروى النوادر عن عشاق أتوا من بلدان بعيدة ، ليلمسوا النعش المرمرى ويتبركوا به ، ظنا منهم أن فى هذا ما يضمن لهم السعادة والهناء فى مستقبل الأيام . ووقفت تحت الشرفة التي يخيل للناظر اليها ليلًا أن طيف روميو يحاول ، مرة أخرى ، أن يتسلقها للقاء طيف حبيبته . وفى إحدى المكتبات ، وبين عشرات الكتب المخصصة للمأساة المؤثرة ، لفت نظرى كتاب لم أعرفه من قبل ، وهو قصة روميو وجولييت للمؤلف الفرنسى « بول ريبو » وما أن انتهيت من مطالعته ، حتى بدأت بترجمته الى العربية ، لاعتقادي بأنه أصدق وأوفى ما سطرته أقلام الباحثين ، وأسفرت عنه دراساتهم ، من الناحية التاريخية ، فى موضوع طرقة الكتاب من جميع أبوابه ، وفى مختلف اللغات .

من هما العاشقان اللذان يضرب بهما المثل ، واللذان خلّد شكسبير أسميهما فى مسرحيته المشهورة ، وأوحت مأساتهما الى الفنانين بمقطوعات موسيقية ساحرة ، واوحات ورسوم رائعة ؟ هل عاشا حقيقة ؟ وهل حدث لهما فعلا ما رواه عنهما الكتاب ؟ ذلك ما عنى بدراسته بول ريبو على ضوء الوقائع التاريخية والوثائق الصحيحة . وقد خدم ريبو بذلك فن القصة وعلم التاريخ معًا . وصور العصر الذى وقع فيه الحادث تصويرًا واضحًا دقيقًا . وتوخى الفائدة التاريخية ولادة الفن القصصى ، وتجنب ما يحسه القارئ من سأم وملل ، حين تروى له وقائع التاريخ فى أسلوب جاف . وللمؤلف روايات عديدة عمادها التاريخ ، تحتل فى عالم الادب مكانة ممتازة ، بينها مجموعة من القصص استوحاها بول ريبو من صميم الحياة العربية ، والعادات والتقاليد الاسلاميه ، فى أثناء اقامته بالجزائر فى الحرب الاخيرة ، وقبيل وفاته بقليل .

وقد صدرت هذه الترجمة لقصة روميو وجولييت ، لبول ريبو، فى طبعة أولى وتصدر الآن فى طبعة ثانية ، مراجعة ومنقحة ، من « الدار القومية للطباعة والنشر » ورجائى أن يجد فيها القارئ ما أحرص دائمًا على أن أوفره له ، فى كتبى الموضوعية والمقتبسة والترجمة : الفائدة والتسلية فى آن واحد .

القاهرة : يونيو ١٩٦٢ - محرم ١٣٨٢

حبيب جاماتى

تصديق المؤلف

هدفت في هذا الكتاب الى تسلية القارئ واثارة اهتمامه الى أقصى ما استطعت ، على انى من الوجهة التاريخية تحرير الدقة الى أبعد حد .

ولعلى تخليت هنا وهناك عن بعض وقائع ثانوية . غير انى حرصت دائما على أن أراعى فيها الاحتمالات النفسانية ، وعلى أن استخدم صورا واللوانا تطابق كل المطابقة أحوال العصر الذى أردت أن أصوره . ويهمنى أن أوكد هذا للقراء الذين قد يميلون الى اتهامى باختلاق الاحداث دون مراعاة الحقائق .

ان كتاب التاريخ كثيرا ما يؤلفون كتباً مملة . ولكن هذا لا يعنى ان هذه الكتب المملة هى وحدها التى تتوخى الحقائق التاريخية .

وقد ذكر « لويديجى دابورتو » - أول ايطالى روى حكاية روميو وجوليت - أنها جرت فى سنة ١٣٠٥ ، فهى أذن ترجع الى العصور الوسطى التى تبدأ منذ انقسام الامبراطورية الرومانية سنة ٤٩٥ حتى استيلاء الترك على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وليست راجعة الى عصر النهضة الذى ازدهر فى أوروبا الغربية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . ومن هنا حاولت جهدى - وأنا ألبسها ثوب حدث تاريخى - أن أحيى فيها ما أثر عن الايطاليين الذين عاصروا الحروب الصليبية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر من صور وعادات ومشاعر وتقاليد .

وكذلك آثرت ان أطلق على اسرتى « روميو وجوليت » اسماً : « مونتيكى » و « كابلليتى » متابعا فى ذلك لويديجى دابورتو . بدلا من اسمى الأسرتين بالفرنسية : « مونتيجو » و « كابلويت » .

وأرجو من القارئ أن يتمثل أشخاص الرواية مثل كل أهل العصور الوسطى : اتقياء سذجا خشنين ، ذوى نفوس مرحة ، فى ثياب تماثل ثياب النبلاء والنبيلات المنقوشة على الأضرحة فى ايطاليا

الفصل الأول

عَدَاءُ بَيْنِ أُسْرَتَيْنِ

مدينة العاشقين

خرج أحد المهرجين الطوافين من بلده في فرنسا ، وأخذ يجوب البلاد في طلب الرزق . ولما لم يجد ما كان يرجو في وطنه ، اجتاز الحدود إلى إيطاليا . وبعد أن طاف بعض القري والمدن وصل إلى مدينة فيرونا (١) المشيدة على أحد منعطفات نهر أويجي

كانت فيرونا محاطة بأسوار عالية . وكانت المنازل خلف الأسوار متجاورة متلاصقة والشوارع ضيقة غير نظيفة .

مر المهرج على أحد جسور النهر ودخل المدينة . فلما رآها على هذه الحال صاح :

— ما اتعس هذه المدينة ! وما اتعس حظي الذي قادني إليها !
وكان ذلك المهرج المسكين قد ترك بلاده منذ الربيع حاملا على كتفيه ترذا وعلى ظهره مندولينًا كبيرة ، ويقود خلفه كلبين مربوطين بسلاسل حديدية . وحدث المهرج نفسه فقال :

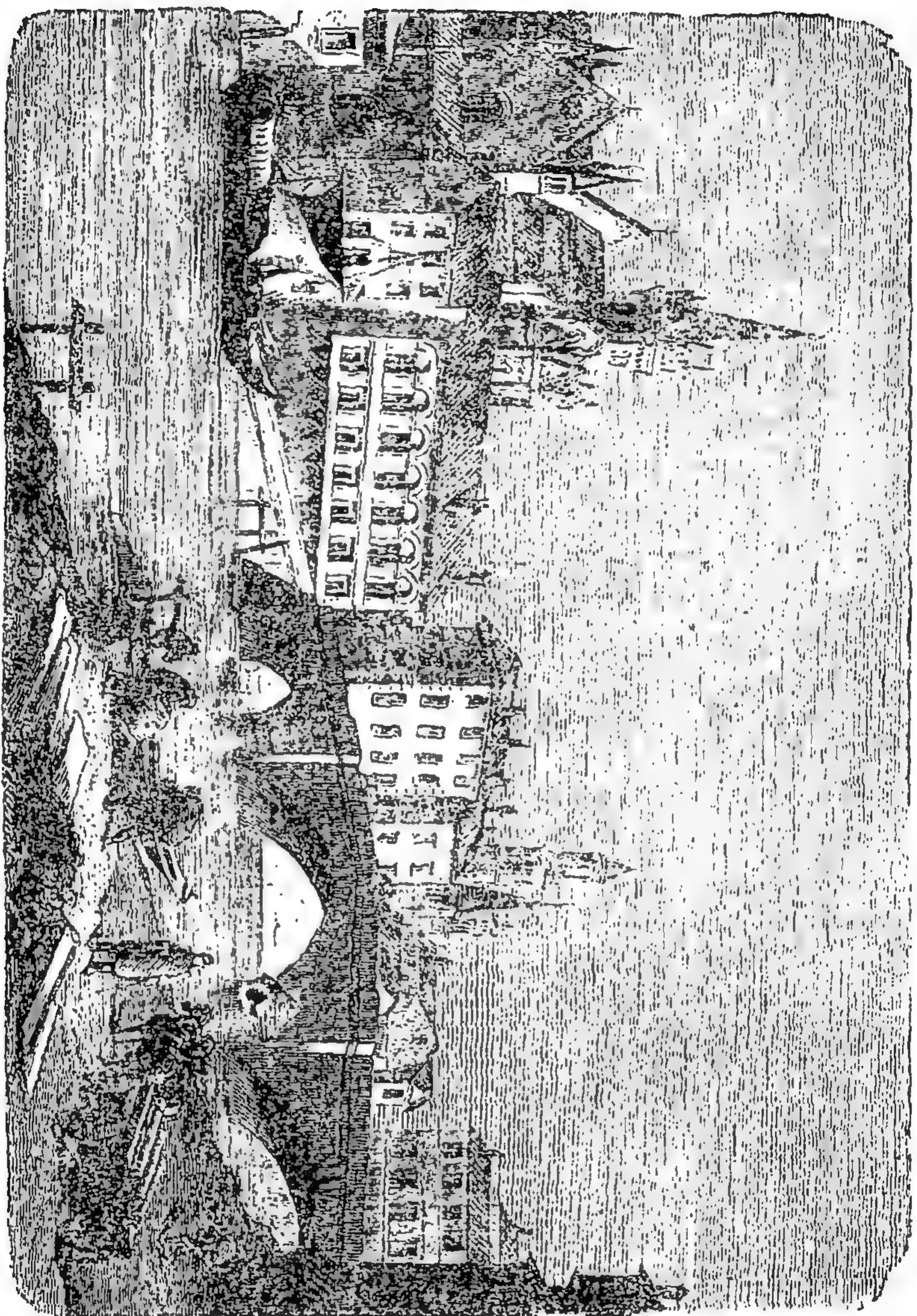
— كنت أظن أن سنة ١٢٨٢ ستكون خيرا من سنة ١٢٨١ . ولكن النحس لا يزال يتعقبني وها قد مضى على يومان لم أكل فيهما كسرة من الخبز .

وسار الرجل في الطرقات الملاء بالأوحال حتى وصل إلى ساحة الكاتدرائية . وكان القرد يصرخ والكلبان ينبحان مما أصابهما من التعب والجوع . وهناك وقف الرجل أمام دار مبنية بأحجار حمراء ، مسندا ظهره إلى الجدار الذي يتوسطه بابها الكبير . وبعد قليل فتح أحد الخدم ذلك الباب فبدأ لعين المهرج فناء الدار الداخلى الفسيح ، تتوسطه بئر ، وتعلو واجهته شارة شرف منقوشة عليها . وقال للخادم :

— ألا تشفقون على مسيحي وعلى حيواناته وتجودون ببعض فضلات الطعام ؟

فسأله الخادم باللغة الفرنسية : « من أى بلد أنت يا صديقي ؟ »
فقال : « أنا من فرنسا ، وأرجو أن يتفضل النبيل صاحب هذا

(١) فيرونا من أكبر مدن إيطاليا القديمة وأشهرها ، وبها آثار رومانية عديدة بينها ميدان للالعاب وكنيسة . وكانت خلال بعض العصور الوسطى جمهورية مستقلة . ويوجد خارجها الآن قسم كبير من المباني المشيدة على الطراز الحديث .



مدینة فیرونا - مسرح المأساة

القصر فيجود على بشيء من الطعام ويفسح لى مكانا آوى اليه انك
وحيواناتى للراحة والنوم ! »

فهز الخادم راسه وقال :

- اذا كنت من فرنسا فالأمل ضعيف لأن السيد مونتيكى رب
هذا القصر من حزب جيبلين أنصار امبراطور المانيا (١)

فقال المهرج : « أليس لنا أن نعلق آمالنا فى كرم النبيلة ربة الدار
السيدة مونتيكى ؟ »

فهز الخادم كتفيه وقال : « كلا ! ان النبيلة مونتيكى لا يمكن أن
تحصل منها على شيء فهي أبعد النساء عن الاحسان والجود ، هذا
الى أنها لا يمكن أن تعطف على أمثالك من أنصار البابوية ! »

فأخذ المهرج يقلب يديه ويهز راسه مبديا بذلك ما خالجه من
اليأس والحسرة ، وكأنما رق له قلب الخادم الطيب ، فقال له بعد
أن نصح له بالانصراف :

- تستطيع أن تسلك هذا الزقاق القريب . فيؤدى بك الى قصر
آل كابلليتى . انهم من أنصار البابوية ، ومتى علموا انك فرنسى من
حزبهم فسيكرمون وفادتك ويمدون اليك يد البر والعطف . وهم
والسيد مونتيكى صاحب هذا القصر أغنى نبلاء هذه المدينة وأقواهم !
وقبل أن ينصرف المهرج المسكين ، استوقفه الخادم وأسر اليه
قائلا :

- حذار أن تذكر هناك انك لجات أو حاولت اللجوء الى قصرنا
هذا ، والا فقد يطردونك شر طردة !.. أفهمت ؟

فأومأ المهرج برأسه موافقا وشكر الخادم قائلا :

- لن أرتكب هذه الغلطة يا صديقى الطيب القلب !

وكان المهرج قد اطمأن حقا الى طيبة قلب ذلك الخادم ، وأدرك
من حديثه حقيقة ما كان القوم فى فرنسا يتحدثون به عن أحوال أهل
فيرونا وما يسود علاقات أهلها من العداوة والبغضاء . فاستأنفه
الكلام وقال :

- أهكذا يتحارب دائما هؤلاء النبلاء آل مونتيكى وكابلليتى ؟!

(١) فى القرن الثانى عشر اتحدت المدن الايطالية الكبيرة مع
الباباوات وأصحاب السلطة الزمنية ، ثم حاربوا المانيا وتحصروا من
سيطرتها ، ونشأت على أثر ذلك جمهوريات مستقلة فى ايطاليا ، كما
ظهرت مملكة نابولى . وانقسم الايطاليون فريقين : أحدهما يناصر
النظام الجديد ، ويطلق عليه اسم (جيلفا) والآخر يعميل الى المائيك
ويطلق عليه اسم (جيبلين)

ولم يجب الخادم عن هذا السؤال ، اذ تذكر في هذه اللحظة شيئاً فقال للمهرج :

— انتظر يا صديقي . ان القوم هنا يستعدون للاحتفال بحادث سعيد . . ان النبيلة مونتيكى قد أنجبت ولداً ، ودنان النبيل ملأى حتى أفواهها ، ولعل استطيع أن أعطيك شيئاً منه . فهات قربتك لأملأها لك ! واخذت المهرج نشوة الفرح ، فجعل يقذف في الهواء بغطاء رأسه ويهتف قائلاً :

— عاش آل مونتيكى . . عاش النبلاء الكرام !

وأدار الكلبان آذانهما نحوه وكأنما شعرا بأن فرحة صاحبهما تعين توقع حصولهما معه على شيء من الطعام . وأخذ القرد يقفز هو الآخر مشاركاً صاحبه في المرح والابتهاج . بينما علا في الوقت نفسه نباح كلاب القصر في حظيرتها الخاصة بداخله ، واطلت بعض الوجوه متسائلة من خلال المتاريس .

وسارع الخادم الطيب القلب فجذب المهرج الى رواق قريب وهو يقول له :

— اسكت أيها الأبله !

ومشى المهرج معه ساكناً حتى بلغا ذلك الرواق ، فلما أطمأن الى ان أحداً غيره لا يسمعه ، نظر اليه في دهشة وقال :

— ما هذا ؟!.. هل السيد مونتيكى بعيد عن المروءة والاحسان الى هذا الحد ؟

فقال الخادم بصوت أقرب الى الهمس :

— ان النبيل مونتيكى رجل طيب ، ولكن امراته تحب الخصام والنزاع ، وهي شديدة البخل حتى انها لتحصى حبات عناقيد العنب . ومع انها الآن على فراش الوضع والمولدات حولها ، فليس بعيداً ان ترسل من يراقبنا ، وحينئذ لا أستطيع ان اضع في قربتك نقطة من النبيل . . وقد ينالني عقاب شديد !

وبعد قليل ، اتجه الرجلان نحو مطابخ القصر في بطء وحذر . . ثم ساد السكون التام فناء القصر . .

كانت النبيلة مونتيكى راقدة في الغرفة الخاصة بها في الطابق الأول من برج القصر . وهي سيدة في العقد الرابع من عمرها ، ذات شعر له لون التراب . وحاجبين عاليين ، وأنف اقنى كبير يطل على فم واسع دقيق الشفتين .

وكانت هيئة وجهها تنم عن كثير من الغلظة والجفاء والشراسة . فلا عجب ان أجمعت القائمات بخدمتها على رهبة جانبها توقفاً لأذاها ،

وعلى التندر فيما بينهن بتقثيرها الشديد وحماقتها وحدة طبعها وسلطة لسانها ، حتى لقد شاع بينهن أن من تقضى سنة كاملة في خدمتها تضمن لنفسها الجنة في الآخرة !

وكانت الحركة شديدة غير عادية في الغرفة ، والنساء القائمت على خدمة ربة الدار ، يتسابقن الى أداء أعمالهن في نشاط وخفة ملحوظين ، وقد فرشت أرض الغرفة بالزهور والرياحين حسب تقاليد القرن الثالث عشر لتفوح منها روائح زكية منعشة ، ولكي تطأ الأرجل شيئاً طرياً فلا يكون وقعها شديداً على الأسماع !

وهناك الى جوار السرير ، كانت تقوم أرجوحة ثمينة ، وضع فيها وليد النبيلة الذي رأى النور يوم عيد القديس يوحنا ، وعليه لفائف عديدة شدت الى جسمه مذ ساعة ولادته . اذ كانت المولدات في تلك الأيام يحرصن كل الحرص على احاطة الطفل منذ ولادته بمثل هذه اللفائف مخافة ان ينشأ بأربع أرجل !

واقبلت خادمة نحو السرير وقدمت للسيدة مونتيكى قدحا فيه سائل لادرار لبن الأمهات ، وكان الطبيب قد أوصى بذلك ، فحركته السيدة في الكوب ثم شربته كله في جرعة واحدة . بينما بدت ملامح وجهها مثيرة للضحك !

وعلى أثر ذلك ، استوت جالسة على سريرها بمعاونة بعض الخادمت ، ثم أخذ صوتها الجاف الأجش يلعلع في أرجاء الغرفة ، وهي تصدر الأوامر والتعليمات للخادمت . فتطلب من احداهن أن تزيد في سرعة مشيها . وتأمر أخرى بأن ترتب الغرفة وفق نظام معين . وتكلف ثالثة أن تضع فوق إحدى المناضد بعض الهدايا التي قدمت لها من الأصدقاء والصدقات ، أو بعض المشروبات المنعشة ، استعدادا لتقديمها بعد قليل للزائرات القادمات لتهنئتها بالمولود !

وهكذا رتبت السيدة مونتيكى كل شيء في غرفتها وفي الدار لاجل استقبال المهنئين والمهنئات في مدى خمسة عشر يوما على الأقل !

وكان الخدم والحشم يتسابقون الى تنفيذ الأوامر والتعليمات ، ويبالغون في أعمال التنظيف والتنظيم والترتيب ، ليكون كل شيء على أحسن حال عند حضور الزوار !

أما المرضعان فلم تكونا تهتمان بزيتنهما لتبهرا الزائرات . وانحصر كل همهما في العناية بالطفل السعيد الذي ملأ ميسلاده القصر غبطة وبهجة وشرح صدور الأصدقاء والأنصار .

كان قصر آل مونتيكى في فيرونا يطل على النهر . وموقعه على الحدود الفاصلة بين المدينة والمزارع . فهو قصر ومزرعة في الوقت نفسه . وكانت له واجهة بسيطة فيها باب ضيق للدخول . وفي الداخل حول فناء فسيح تقوم المساكن والغرف . وبين القصر والنهر مرج وحظيرة كلاب ، وفرن واسطبلات . وعند آخر المرج على شاطئ النهر ميناء صغير ترسو فيه ثلاثة قوارب لخدمة اصحاب القصر وأنصارهم .

وأصدقائهم . وفي مدخل القصر كانت تقوم غرفة الأسلحة ، تغطي جدرانها الأعلام وبعض تحف وصور تذكر بالصيد والقنص وبعض الحيوانات والطيور الغريبة . وبينها صور فرسان يحاربون تنانين ، وملائكة يخفون إلى مساعدة المضطهدين في سبيل الدين ! . وكان الصعود إلى الطابق الأول من القصر يتم بواسطة سلالم تضيئها مشاعل تبقى موقدة ليل نهار . وفي هذا الطابق كانت مخادع سادات القصر حيث ينامون .

وكان السيد مونتيكي بدينا . عيناه بارزتان . وشفته غليظتان . ووجهه ضاحك ينم عن سرور وغبطة في حياته

على أنه رغم هذه الظواهر الجذابة كان الحقد يملأ جوارحه أحيانا . وكان من أنصار الأباطور البير ، يكره عامة الشعب ، كما يكره البابا معتقدا أنه لا يصلح للحكم الزمني !

وكثيرا ما كان هذا الرجل الطيب القلب القوي العضلات ينتقد الذين يحبون الأخبار الجديدة ، وكانت بعض الظروف الخاصة قد جعلته يكره حزب البابوية الذي يقف أنصاره إلى جانب البابا ويدافعون عن حقوق الفقراء والعامة .

ومنذ مائة عام قبل ذلك التاريخ أحب فتى من آل مونتيكي فتاة من آل كابليتي . وبرغم الخلاف السياسي الذي كان سائدا يومئذ بين الأسرتين الكبيرتين ، تم الاتفاق على اقتران الفتى بالفتاة ، وحدد يوم الاحتفال بعقد هذا القران .

وفي ذلك اليوم ، وبينما الفتى يصعد درجات سلم الكنيسة ، يحيط به لفيف من آل مونتيكي هجم عليه بعض أنصار البابوية الحانقين على أسرته لاغفالها دعوتهم إلى الحفلة . وجرت بين الفريقين معركة خامية ، انتهت بقتل الفتى على درجات الكنيسة . وكان قاتله من آل كابليتي !

ومنذ ذلك اليوم اشتد الخصام بين الأسرتين وأخذ يزداد يوما بعد يوم !

وكان « البرتو ديلا سكالا » حاكم مدينة فيرونا مناصرا لآل مونتيكي لأنه مثلهم من حزب الإمبراطورين ، بينما آل كابليتي - وهم باباويون - يؤلفون حزب المعارضة . وهكذا انقسمت المدينة إلى حزبين يحارب أحدهما الآخر ، وكان طبيعيا أن يشهد فرح كل من الأسرتين كلما ولد لها طفل يزيد في عددها ، وكانت ظروف السيد مونتيكي نفسه مما يجعل فرحته أشد بوليدته ، إذ كان أول ولد ذكر يرزق به بعد عدة سنوات من زواجه !

الطفل روميو

دخل احد الخدم على السيدة مونتيكى وقال :
- اتسمح سيدتى بأن يدخل المنجم الذى طلبته ؟
فانفجرت اسارير وجه السيدة ، واعتدلت فى جلستها قليلا ،
وصاحت بالخدام قائلة :

- اين هو المنجم ؟ .. هيا احضره فوراً ، وادع سيدك ايضا لانى
اريد أن يكون حاضرا . اذهب سريعا ، واياك ان تتلأ كما سادتك فانت
مثال البطء والتراخى والاهمال !

وحنى الخادم رأسه مطيعا ، ثم انصرف مسرعا وما لبث غير قليل
ثم عاد معه المنجم المطلوب .

ونظرت السيدة الى المنجم فاذا هو ذو رقبة دقيقة ، ورأس يشبه
البيضة . ولحيته الكثة تتدلى على صدره ، وقد ازدانت سبابة يده
اليمنى بخاتم كبير براق ، عليه علامات سحرية رمزية !

فقطبت السيدة وجهها وقالت له بلهجتها الجافة الخشنة :
- لقد دعوتك يا سيد جوالتيروس كما هى العادة لتكشف لنا
طالع الولد الذى أنعمت به علينا السماء . فأرجو أن تقول لنا خيرا !

فانحنى امامها جوالتيروس مبديا الاجلال والامتثال ، ثم اخذ يقرأ
فى كتاب كان يحمله بين يديه ويشير الى بعض علامات بأصبعه . وبعد
القراءة والتمعن قال :

- بعد استشارة الكواكب الخاصة بهذا اليوم الخامس عشر من
شهر يونيو ، أرى أن الأحوال طيبة ، ويمكن أن أقول ..

وسكت المنجم فجأة ، اذ فتح الباب فى هذه اللحظة ودخل السيد
مونتيكى هاشا باشا ، وصاح قائلا :

- أهذا السيد جوالتيروس اتى ينبئنا بالطالع السعيد المفرح ؟
انى أحبيك أيها السيد العالم وأتمنى لك من السعادة قدر ما ستنبئنا
به عن هذا الوليد !

ثم خطا مقتربا من الأرجوحة التى بها الطفل ، فلما بلغها وقف
يتأمل وجه الطفل وهو لا يكاد يظهر ، لكثرة ما كان عليه من الأربطة
واللفائف . ثم مد السيد مونتيكى يده ولمس اصابع الطفل ، ففتح هذا
جفنيه وفمه قليلا . وسرعان ما غمر البشر وجه أبيه وصاح قائلا :
- ها هو ذا يضحك !



الطفل روميـو

ثم ضرب بيده على فخذيه واستطرد قائلا :

— سيكون شابا عظيما من انصار الامبراطور . هلم احضروا
كأسا من النبيذ لأبلل به وجهه و

فقطعت زوجته كلامه في خشونة وقالت :

— كلا!.. لا تفعل هذا ، لانه يكون زراية بسر العماد المقدس
وهو مالا أقبله !

فبادر السيد مونتيكى بالعدول عن اقتراحه قائلا :

— حسنا!.. لن يكون الا ما تريدون !

وكان تصرف الزوجة دليلا جديدا على رغبتها في اذلال زوجها .
وهو ما تعودده منها منذ اتصلا بالزواج . ولم يكن ميالا الى المخاصمة
فأذعن لرأى زوجته حسب عادته ، ثم نظر الى المنجم فرآه متجهما
فقال له :

— ماذا؟. أراك عابسا تبدو في وجهك علامات القلق والاضطراب!
هل رأيت في طالع الطفل ما يكدر؟!

فتردد المنجم أولا ، ثم قال :

— أبدا بشكر الله الذى سيحمى الطفل في بداية عمره . ثم أرى
الأحرى بى أن ألزم الصمت فلا أقول شيئا بعد ذلك !

فقال له السيد مونتيكى !

— بل يجب أن تتكلم !

فبدا التردد في وجه المنجم ، ثم قال :

— أما مستقبل الطفل فلست أذكر ما تدل عليه الطوالع في شأنه
لأنى ...

فقطع السيد مونتيكى كلام المنجم قائلا :

— قلت لك : يجب أن تتكلم ...

فقال المنجم : « تدل مقارنة الكواكب على أن الطفل روميو متى
بلغ الخامسة والعشرين من عمره فيجب عليه أن يتحاشى رجلا آتيا من
الشرق ! »

فسكت السيد مونتيكى قليلا ، ثم هز رأسه وقال :

— هل ذلك الرجل عدو قادم للحرب ؟

فقال المنجم : « لست أرى هذا الرجل يحمل سلاحا ، ولن يحاول
السيد روميو أن يقتله . بل هو على عكس ذلك سيدفع له مالا ثمنا
للسر الذى سيصيبه منه ! »

حرصوا على ألا يبلل جسمه . بل كانوا اذا تجمعت مفرزات الجسم
وكونت على جلده قشرة قذرة ، اكتفوا بفرك الجلد حتى تسقط تلك
القشرة . وذلك طبقا لعادات القوم في ذلك العهد . وكانوا فوق ذلك
يفركون جسمه كل يوم أحد بقطعة قماش مبللة بماء ممزوج بعصير
بعض رياحين وزهور عطرية .

وبهذه الطريقة عاش الطفل حتى بلغ السابعة من عمره دون أن
يمسه مرض !

وحيث أخذ الوالد يهتم بتربية ولده حسب العادات الداريجة
في أيامه ، فكان يوصيه بأن يكون مؤدبا مهذبا لطيف الكلام والاشارة ،
بشوش الوجه مطيعا ، وعلمه كيف يتحدث في رقة وأدب . وكيف
يقابل الناس ويحترمهم . وعلى هذا نشأ الغلام حكيما تقيا سهل
القياد ، وبدت عليه منذ الصغر دلائل تؤكد أنه سيكون نبلا صالحا
محترما بين الناس !

وكذلك علمه أبوه الصلاة وترتيل الأناشيد الدينية . كما علمه
السباحة وركوب الخيل . وعوده الجميع ألا يخاف من الظلام
والظلال ، وأن يتحمل الامطار دون تدمير وأن يكون مقداما جسورا .
وهكذا تعود الطفل أن يثق بنفسه ، وأن يحلم بالمغامرات ،
ويتجلى من صفاته خاصة : العزم الثابت ، والآباء

وقد حدث يوما أنه ضرب فلم يبك فقالت الموضع :

— ان السيد روميو على النفس ، لا يرضى أن يبكي !

وهنا قال روميو : « حينما أكبر ، لن يجرؤ أحد على أن
يضربنى ! . على انى لم أبك اليوم حتى لا يعلم أحد بأنك ضربتنى ! »

فأثنت عليه الموضع وزادت في تشجيعه !

كان والدا روميو لا يعرفان القراءة لأنهما من طبقة النبلاء .
فكان على الولد أن ينشأ مثلهما . الا أنهما أرادا أن يعلماه بعض
شئون الحياة العامة ، وكان أبوه قد تعود أن يكلف أحد الرهبان
أن يقرأ عليه تاريخ القديسين ومغامرات أبطال العصور الغابرة .
وتمنى أن يهتم ابنه مثله بأهم أحداث الدنيا وعجائبها ، فاتفق مع
الأب لورنزو العارف بجميع ضروب العلم على أن يأتى الى القصر
مرتين كل اسبوع ليتولى تعليم روميو ، وخصص في القصر غرفة
بعيدة عن الضجة لتكون مقر تلك الدروس .

وعلم الأب لورنزو الغلام عجائب الطبيعة ، فشرح له ما فى
الهند والحبشة من أشياء غريبة مدهشة ، ومما علمه إياه أن الشمس
تدور حول الارض في يوم وليلة . ولم يكتف الأب لورنزو بأن يحشو
ذاكرة روميو بأعاجيب الطبيعة ومدهشات الوقائع والحوادث فقط ،

بل عنى كذلك بأن يصقل عقله ، فأوصاه بألا يلوم أو ينتقد الناس لئلا يلوموه وينتقدوه هم أيضا . وقال له يوما :

- إذا أردت أن تعيش عيشة هنيئة ، فاذاكر دائما أنه يجب ألا تستسلم للهموم ، واعلم أن من الخطأ وضعف العقل أن تدلى بنصائح الى من لا يتوقعونها منك ، وان الشيطان يسره أن يسمع الناس يتحدثون مع أولئك المخبولين الذين يدعون أنهم يفكرون في شئون هذا العالم ويدرسون أحواله ويستخرجون عبره . وهذا ما تعلمناه من الكتب المقدسة . ويجب احترام الله وإكرامه دون الحلف باسمه أو الكذب عليه . كما يجب مساعدة الفقير والابتعاد عن النفاق .

ولم يكن الغلام روميو يقضى كل وقته في العمل ، بل كانت والدته برغم فظاظتها وقسوتها تأذن له في التريض والتسلي واللعب كلما أرضاها سلوكه أو كلما شهد الأب لورنزو بأنه راض عنه . فكان روميو يلعب رفاقه من الصبيان ، ويستقبل المهرجين الذين يفدون الى القصر فيتسلى بألعابهم وألعاب قرودهم وكلابهم وفكاهاتهم . كما كان يصفى لأقوال الشعراء المغنين الجوالين الذين يقصون مغامرات أبطال العصور الماضية . وشد ما كان الحماس يهزه حين يفكر في أنه هو أيضا سوف يستطيع متى تقدمت سنه أن يهز السيف ويصادم الدروع ويبقر بطون الخيل ، ويشق صدور الاعداء !

نعم لم تكن السيدة مونتيكى تسمح بدخول القصر لأولئك الشعراء الجوالين ، لأنها كانت تراهم أوباشا متشردين طوال السنة ، يعرفون كل شيء ، ويقولون كل شيء ، ويتجولون في أنحاء العالم ويكشفون النقاب عن أسرار الناس . ولكنها مع ذلك كانت تقبل فيهم شفاعاة ولدها روميو ، وكان أبوه يأمر بأن يوزع عليهم كثير من النبيذ لانه كان رجلا رقيق القلب والشعور !

ولما بلغ روميو عامه الحادى عشر ، دفع به والده الى فارس مسن خبير يعلم الفروسية واستعمال السلاح ، ليجعل منه فارسا قوى الشكيمة ، مرهوب النزال .

وعز على روميو بادية الأمر أن يفارق المرضعين اللتين كانتا ترعيانه منذ ميلاده ، وذرفتا هما أيضا كثيرا من الدموع لهذا الفراق المؤلم ! وحينما تشبث بهما وضرب الأرض برجليه مؤكدا أنه سينتقم لنفسه، صفعته والدته بشدة ، وهددته بأن تعامله معاملة أقسى وأشد اذا لم يخضع لأوامر والديه لأن سلطتهما مستمدة من الله !

وخضع الغلام لأرادة والديه ، ومضى مع الفارس بونافنتى الى غرفة السلاح . والحق أن روميو طالما تمنى منذ سنين عديدة أن يؤذن له في دخول هذه الغرفة حيث كانوا يحفظون أسلحة أجداده منذ مئات السنين

واخذ الفارس العجوز يعلمه أسماء الأسلحة . ثم شرح له طرق استعمالها . وكان الغلام فرحا مسرورا الى حد بعيد !

روميّو يضطّر

فرغ الاستاذ بونافنتي من تلقين روميو تلميذه مبادئ الصيد وقواعده ، ورغب هذا في تطبيق العلم على العمل ، فاستجاب أستاذ له لرغبته ، واصطحبه في رحلة لصيد الزراير .

واصطاد الاستاذ وتلميذه كثيرا من الزراير ، وكان بعضها ما زال حيا سليما ، فربطوا أرجلها بخيوط طويلة مدهونة بمادة الدبق اللزجة ، ثم أرخيا لها العنان فطارت واختلطت بأسراب الزراير الطليقة ، وسرعان ما لصقت أرجل كثير من هذه بتلك الخيوط ، فاصطادها هي الأخرى بهذه الوسيلة في يسر وسهولة .

ولما صار في استطاعة روميو أن يمتطي جواده ويركضه وراء القريسة التي يريد صيدها ، أهدى إليه أبوه فهدا صغيرا أرقط ، يبدو جسمه ذو البقع السوداء وكان ليس به عظام لشدة ليونته ، ثم ألبس هذا الفهد دثارا أزرق مطرزا ، وأحيط عنقه بقلادة من اللآلئ يتوسطها جرس من الذهب ، فكان روميو إذا خرج للصيد ، أردف هذا الفهد خلفه على جواده ، ثم يطلقه على ما يلوح له من الارانب وغيرها ، فسرعان ما ينقض عليها انقضاض الصاعقة ، ثم يحملها بين أسنانه ، ويعود بها الى روميو ! وبعد تجارب عدة وتمارين طويلة حكم الاستاذ بونافنتي بأن تلميذه صار أهلا لأن يعنى بتربية الصقور لأجل الصيد .

وكان السيد مونتيكي يقتني صقورا نادره من هذا النوع ، جلبت من ألمانيا حيث أخذت صغيرة من أعشاشها في الصخور على شاطئ البحر الباردة ، وأخذوا في تدريبها على ما يلقي إليها من الاوامر بوساطة الصغير والاشارات والاصوات . فاختار الأستاذ من بين هذه الصقور الطفها هيثة ، وأخفها حركة وطيرانا ، واختارها من الأنثى ، اذ هي أقرب الى الطاعة والانقياد من ذكور الصقور المتعجرفة . وكان في ذيلها ثلاث عشرة ريشة مما يؤكد جودة نوعها . ثم قال لروميو : « لا يكفي أن يستفيد الانسان من الاشياء التي تحيط به في هذا العالم بل يجب أن يعرف أصولها » . ثم مضى يعلمه كيف يوقف أنثى الصقر المختارة هذه فوق راحته ، وكيف يدرّبها على مطاردة الفرائس التي يحاول اصطيادها ، كما لقنه كثيرا من الحيل النافعة في صيد الطير

وكان من بين تلك الحيل اصطناع عصفور من قماش أحمر ، وتزويده بجناحي حجل أو بطة ، ثم توضع عليه قطعة لحم صغيرة مما يأكل الصقر ، على ألا يسمح له بأن يلتهمها الا بعد أن يعود الى سيده حاملا الطريدة المطلوبة !

وفى ذات يوم ، التفت الاستاذ الى تلميذه وقال له :

— سنصطاد اليوم من دون استعمال هذه الخدعة • بل نطلق حبلا مجروحا يستطيع الصقر أن ينقض عليه فى سهولة • ثم تهجم أنت فى الحال لتمنع الصقر من تمزيق الحبل !

ثم أعاد هذه التجربة على أرنب كسرا احدى قدميه الاماميتين لكيلا يستطيع أن يمضى بعيدا !

ثم وضعنا جلد أرنب على ديك حى أطلقاه فى حقل ، فأخذ الصقر الذى كان روميو ممسكا به يصفق بجناحيه ويرتفع لكى يطير • وبعد أن خلعا عنه دثاره أطلقه روميو فانقض على جلد الأرنب وانتزعه وأتى به الى سيده الذى أعطاه رأس الديك وكبده جزاء له !

وكان الاستاذ عندما يتكلم عن الصيد بواسطة الصقور يتحدث بلهجة الجد والعظمة •

وكان يقول لتلميذه : « ان الصقر مثل السيف علامة مميزة لا بد منها للنبله ، وان شرائع الفروسية تحظر التخلي عن الصقر فاذا هجم عليك لصوص يوما وأنت تصطاد فيجب أن تطلق سراح الصقر فى الحال لأن الصقر نبيل لا يجوز أن يقع فى الأسر ! »

ثم ختم الاستاذ درسه بأن لقن تلميذه الضراعة التى يجب على كل صياد طيب أن يوجهها الى النسور لكى تحترم هذه الصقور فى تأدية واجباتها • وهذه الضراعة هى : « أيتها النسور • • استحلفك بالاله الحق المقدس ، وبالغذراء الطاهرة مريم ، وبطبقات الملائكة التسع ، وبالانبياء والقديسين ، وبالاثنى عشر رسولا ، أن تتركى المجال حرا لصقورنا ، وألا تتعرضى لها بأى ضرر ! »

الجماهير التي كانت لا تزال تتدفق وتتراحم برغم امتلاء المقاعد كلها
بالنظارة

وأخيرا ، بدا فارس يلبس ثوبا واسعا ثمينا عليه رسم شمس
فيرونا ، وأخذ ينفخ في بوق طويل فضى ، ثم رفع عقيرته وصاح بالحاضرين
أن يلزموا الصمت .

وسكت النظارة ثم بدأت المنافسة بين المتبارين .

ورأى النظارة فارسين حاملين رمحين يتنازلان وهما يسيران خبيبا .
وكانت أغشية الجوادين ثمينة فاخرة مختلفة الألوان متنوعة الاشكال .

وحدث حين اقترب أحد الجوادين من الآخر ، أن مضيا في اندفاعهما
فكانت بينهما صدمة قوية ، وأصاب رمح أحد الفارسين درع الآخر ،
وأصاب رمح هذا غطاء ذراع ذاك . وعلت ضجة وجلبة طويلتان من جميع
صفوف النظارة ، وكان روميو منشرح الصدر بادی الغبطة .

ثم رجع الفارسان الى أطراف الساحة ، وأركضا جواديهما الى أن
التقيا وجها لوجه ، ثم أخذا يتبارزان . وكان أحدهما محافظا كل المحافظة
على قواعد المبارزة ، كما بدا أنه شديد اليقظة والحذر ، أما الآخر فكان
أكبر همه منصرفا الى لفت أنظار السيدات اليه ، واستثارة إعجابهن به ،
وهكذا لم يمض قليل حتى ضربه خصمه برمحه على وجهه فهوى على الأرض
والدم يقطر من فمه وأذنيه وسقطت أسنانه من فمه !

وعلا هتاف النظارة يحيون هذا الانتصار ، وعزفت الموسيقى ، ونفخ
في الابواق . بينما أخذ الفارس الظافر يرد تحية النظارة بحركات خاصة
يأتيها برمحه !

وتلت هذه المباراة مباريات أخرى عديدة . وصار المتبارون يشكون
خيولهم بالمهاميز ويتشائمون ، ويصف بعضهم بعضا بالخور والندالة
ويحثون جيادهم لكي تهجم في وحشية .

وبلغ عدد النبلاء الذين اشتركوا في هذه المصادمات عشرين فارسا
جرح منهم ثمانية وسقطوا عن خيولهم . وهلك جوادان أخرجهما من
الميدان .

ولم يمت في هذا الصدام الا اثنان ، سقط أولهما - وهو أحد النبلاء -
متأثرا بطعنة رمح شطرت خوذته شطرين ونفذت الى رأسه فسالت الدماء
على وجهه ، ودار حول سرجه ثم سقط الى الوراء ! أما القتيل الآخر فكان
أحد المنادين ، هجم عليه جواد في أثناء الزحام ورفسه بقوة في موضع
حساس من جسمه ، فتلوى المسكين وسقط على الأرض يصيح من شدة
الألم ، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يخرجوه من الميدان !

على أن هذين الحادثين لم يؤثرا في رونق الحفلة ، لأن القوم في
ذلك العهد كانوا يعيشون والموت الى جانبهم فكانوا يعدونه دائما قريب
الاحتمال ! بسبب السهم أو الطاعون أو ضربات الخصوم . وكان الناس

يحسبون أن الذين يموتون في مثل هذه الظروف يسبقون غيرهم إلى الجنة !

وفي ختام الصدام تقدم الفارس الذي أعلن حكم المباراة أنه هو المنتصر نحو مقصورة حاكم المدينة « البرتو ديلا سكالا » في احتفال عظيم . وعندئذ تعالت الهتافات المتواصلة الحماسية وجلبة الفرع ، السرور والتصفيق الشديد المتواصل .

على أن الغلام روميو ، مع شديد إعجابه بما شهد من ضروب الألعاب الباهرة ، كان كل تفكيره متجها نحو الطفلة الجميلة ، فعاد إلى سؤال أبيه من جديد : « من تكون هذه الطفلة ؟ »

وهنا شده أبوه من كتفيه ثم ركله بقدمه ركلة عنيفة وقال له :

— ألم أمرك بالسكوت ؟ . . اياك أن تعود لمثل هذا السؤال ، ولتمح صورة هذه الطفلة من مخيلتك فهي من آل كابلليتي ، ويجب ألا تهتم بها ولو كانت أجمل من أجمل القديسات في الجنة !

مضت على ذلك الحادث ثلاثة أعوام ، وكان روميو مونتيكي قد دخل في السنة الرابعة عشرة من عمره ، وقد برع إلى حد كبير في قنص الطيور وهي تسبح في الفضاء ، وصار أهلا لأن يحمل الصقر على كفه ! وبدأ الشاب منذ عيد الفصح في سنة ١٢٩٦ يحمل على كفه وهو جذلان طائرا على رأسه غطاء من الجلد مطرز بالذهب وتزينه لآلء ، وقد علق بساقيه جرسان صغيران من الذهب عليهما شعار سلاح سيده ، وذلك لكي يمكن الاهتداء إليه إذا ضل بين الاحراش والاعشاب .

وكان روميو في ذلك الوقت قد تعلم كيف يعدو طويلا على ظهر جواده ، وكيف يتشبث بمقعده فوقه وكأنما التصق به ، فكان الناظر إليه وهو يعدو بجواده يكاد يحسبه هو والجواد والسلاح قطعة واحدة . وكان الفلاحون إذا رأوه مارا سدّدوا إليه أنظارهم يمتعونها بشبابه الغض ونبل طلعتة وعرض كتفيه ورشاقة قدمه !

وكان حين يمر في سهل أو غابة أو كرمة ، ويرى طائرا يحلق في الفضاء هناك ، يبادر بالوقوف ، ثم يطلق صقره مشيرا له إلى ذلك الطائر ، فسرعان ما ينطلق الصقر كالسهم ، ويمضي محلقا مطاردا ذلك الطائر إلى أن يمينا في الطبقات العالية من الجو ، ولا يرى الناظر إليهما سوى نقطتين سوداوين ، تقتربان حيناً ، وتبتعدان حيناً . وقد تختفي أحدهما أو كليهما في زرقة السماء ، ثم لا تلبث أحدهما أن تبدو أكثر وضوحا ويزداد حجمها كلما اقتربت من الأرض . وأخيرا يتبين أنها الصقر الذي أطلقه روميو ، وقد عاد ممسكا بفريسته وهي ما زالت تنتفض من أثر الصدام الذي حدث بينهما في الجو !

على أنه كان يوجد أصعب من هذا الضرب من الصيد وأخطر منه

جوليت في النهر

استطاعت انتمرينات الرياضية أن تحول روميو من غلام رخو الى شاب قوى الاعصاب والعضلات ذى بأس شديد ونفس حازمة وثابة ، وأخذت تصرفاته تتسم بالتمرد والصلابة .

وكان من يراه في الكنيسة راكعا يصلى في خشوع واستكانة ، لا يتصور أن هذا الشاب الهادئ الطبع يمكن أن يكون ثائرا متمردا . والواقع أن روميو كان قد بدأ يثور ضد استبداد أمه وطغيانها في القصر ، وكانت هى تصفعه على وجهه في شدة صفعات تهزه وتقذف به على الأرض أحيانا !

يبد أن أباه لم يكن يرضى عن تلك القسوة من وزجته ، اذ كان يحب روميو ويعطف عليه ، وكان يلذ له وهو يتمشى على سطح القصر أن يتكىء على كتفى ولده متأملا علامات الحزم التى كانت تظهر على وجهه . وهكذا تعود روميو أن يعتبر أباه صديقا له وموضع ثقته .

وكان لهم جار نبيل اسمه « شفافنتى » له ولد يصغر روميو بسنة واحدة ويمثله في الاخلاق والعادات ، واسمه « مركوتشيو » ، فتوثقت عرى اللفة والمحبة بين الشابين ، وراحا يتنافسان في مختلف الالعاب الرياضية كرمى السهام والنشاب والمقلاع ، ويخرجان الى المروج حول فيرونا حيث يتسابقان على ظهور الثيران بعد أن يهيج كل منهما ثوره ويركضه بأقصى قوته ، غير عابئين بما يصيبهما من جراء سقوطهما على الأرض خلال ذلك .

وفى كثير من الأحيان ، كانا يرميان فى نهر أديجى شباكا لصيد السمك ، ويتركها الى اليوم التالى حيث يأخذان ما تجمع فيها من أنواعه المختلفة . كما كانا يذهبان الى الجبال المجاورة لصيد الذئاب والثعالب وأنواع الطير الجبلية . وكان والداهما يرسلان معهما بعض الخدم والأعوان ليكونوا فى خدمتهما وحراستهما خلال الرحلة .

وكان روميو يحب رفيقه مركوتشيو محبة شديدة ، لكنه فى الوقت نفسه كان بحكم ثراء والديه وتربيته الخاصة ، يملأ ارادته عليه دائما ، ويحسده على ما يستطيع ممارسته دونه من ضروب اللهو والتسلية .

وكثيرا ما تخاصم الشابان لأسباب تافهة ، لكن خصامهما لم يكن يستمر أكثر من يوم ، ثم يحل محله الوفاق والوداد من جديد . لأن كل واحد منهما يشعر بميل غريزى خفى نحو الآخر ، ولا يطيق أن يصبر طويلا على الابتعاد عنه .

كان الشتاء في فيرونا ، غير مستحب غالبا بسبب الرياح الشمالية
ثابتة تهب عليها وتمر فوق جبال الألب المغطاة بالثلوج . وكذلك كان
صيفها كثيرا ما تشتد حرارة الجو فيه الى درجة تحمل أهلها ، والمترفين
منهم خاصة ، الى الخروج رجالا ونساء الى النهر للاستحمام فيه .

وقد تعود روميو أن يطرح خارج قصر أبيه بقايا الخراف التي
يحضرها من مزارعه لذبحها وأكل لحومها ، فكانت هذه البقايا تتجمع
من قشور الفاكهة والخضر وبقايا الطيور والبيض المعفن والزبد الفاسد
وأمعاء السمك وما إليها ، ويتكون من هذا كله تلال متفرقة في مواضع
عدة من الشارع ، وكان الخدم يلقون على هذه التلال ما يريدون التخلص
منه من المياه القذرة وروث الخيل والكلاب وما إليها من القاذورات ،
فتحتشد فوقها جيوش من الذباب والبعوض ، يقل عددها حين تجف
تلك التلال وتتجمد تأثرا بما يصل إليها من أشعة الشمس . أما المواضع
التي لم تكن أشعة الشمس تصل إليها ، فكانت تلك القاذورات تتخمر
فيها ، وتنتشر منها - عدا الرائحة الكريهة والذباب والبعوض - أفواج
من الديدان تزحف هنا وهناك !

وفي يوم من أيام الصيف ، خرج روميو الى النهر للاستحمام
يصحبه صديقه مركوتشيو . وفيما هما يسيران على الشاطئ هناك ،
شاهدا بين المستحمات صبية صغيرة ترتدى قميصا طويلا أبيض ، التصق
بجسمها الفض ، ذي اللون الذهبي المائل الى السمرة ، فزاد في فتنها
وملاحظتها !

ولم تكن هذه الصبية الحسناء ، يزيد عمرها على عشر سنوات ،
على أنها كانت تحاط بعناية كبيرة ملحوظة من السيدات المستحمات
الأخريات ، وكلهن يتنافسن في احترامها واجلالها ، مما يدل على أنها
سليقة أسرة عريقة ذات ثراء وجاه ومركز رفيع .

وأعجب روميو وصاحبه بمنظرها وهي تستحم في النهر ، وتلهو
بضرب الماء بعضا قصيرة في يدها فترتفع قطراته ، ثم تنحني وتنكمش
متظاهرة بالخوف حين يعاو الماء في موضعها بالنهر ، ويفطئها حتى
عنقها ، وهنا تقفز في رشاقة ومرح ، فتبدو قامتها الهيفاء في مظهر
يخلب الألباب والعيون !

وكان أن انصرف روميو ومركوتشيو بكل اهتمامهما الى مراقبة
تلك الصبية ذات الجمال والدلال والجلال ، فاتخذتا لنفسيهما مخبأ خلف
بعض الأعشاب المرتفعة ، ووقفا هناك يختلسان النظر إليها أثناء
لهوها ، ليستمتعا بما تبدييه - من حيث لا تشعر بهما - من ضروب
الفتنة والاغراء .

وفيما هما مأخوذان بسحر جمالها ورشاققتها وخفتها ، سمعا
أحدى تابعاتها تهتف بها قائلة :

- حذار يا جوليت . لا تبعدى من هنا لأن الأرض كثيرة الأوحال
هناك . . . وأخشى أن تزلق رجلاك !

فعرفا ان اسمها جوليت . وسرهما أنها كانت حريئة لم تعبأ

يتجذير هذه التابعة وغيرها ممن معها من الحارسات ، فكانت تفاقلهن وتمضي في لهوها ومرحها فتفطس في الماء حتى يبلغ ذقنها ، وتخوض في الوحل حتى يغطي جسمها كله ، ثم تقفز هنا وهناك في خفة الظباء ، وضحكاتهما الصبيانية البريئة تلعلع في الفضاء !

وهمس ماركوتشيو بغتة في أذن روميو قائلا :

— لقد عرفت الآن من تكون هذه الحسناء اللعوب وأرهف روميو سمعه ، ونظر الى صاحبه متسائلا في لهفة ، فواصل هذا كلامه وقال :

— ان احدى هؤلاء الحارسات اللاثي يصحبها ، خادمة عند آل كابلتي ، فهي اذن من فتيات تلك الاسرة !

وسرعان ما اختفى البشر من وجه روميو ، وبدا مقطب الجبين ، يادى الحسرة والأسف ، فقد كان حسب تقاليد أسرته يحمل حقدا شديدا في طيات نفسه لاسرة كابلتي ، منافسة أسرته في فيرونا ، من حيث الثراء والجاه وكثرة الاتباع والانصار ، فضلا عما بين الاسرتين من عدااء مستحكم قديم !

ثم مط روميو شفته السفلى وقال :

— صبية من آل كابلتي ؟ ! .. أتمنى أن يخرج من الماء حيوان مفترس يمزق جسدها وينظف الارض منها !

ثم استطرد فقال : « لنذهب من هنا .. ان ماء النهر ليبدو قدرا بعد أن دنسته أجسام أولئك الأوغاد ! »

بلغ روميو السادسة عشرة من عمره ، قسعى أبوه لدى السيد البرتو ديالا سكالا ، حاكم مدينة فيرونا ، حتى عينه وصيفا له

وكان السيد البرتو هذا من أسرة « شكالجيري » . وقد تولى حكم المدينة منذ عشرين عاما . وكان رجلا طيب القلب ، محبا للسلام ، غير ذى مطامع . وقد استطاع أن يعقد الصلح مع أهالي بريشيا وبادوا ، وأعلن ذلك رسميا في ميدان السوق خلال ثلاثة أيام بوساطة المنادين والنافخين في الابواق ، ومنذ ذلك العهد عاشت فيرونا في رخاء وسلام . وصار العدل مخيما على الجميع

وجرت العادة في ذلك الوقت بأن ينظم الكبراء في سلك حاشيتهم شبانا أقوياء يصيرون بعد بضع سنوات من رجال أنحاكم ، حيث يتدربون على السلطة ويروضون أنفسهم على الانقياد والطاعة لرؤسائهم وزعمائهم

وكان روميو شابا ظريفا ، يتدلى شعر رأسه ضفائر على خديه . ويضع على رأسه غطاء من المخمل الاحمر تغلوه ريشة ، وكان كيسه دائما تماؤه النقود . كما كان عريض المنكبين ممشوق القوام ، قوى العضلات

وكانت السמידات الشابات ينظرن اليه في اعجاب وتقدير ،
ويتحدثن بما امتاز به من القوة والجمال والبراعة في الرياضة

وكثيرات منهن ، كن يتوددن اليه ، ويتقربن منه ، للاستمتاع
باجتلاء طلعتة والاستماع لحديثه ، ومنهن من كن لا يملكن انفسهن
حينذاك ، فيامسن خديه الناعمين بأيديهن على سبيل الملاطفة والتحبب
وكذلك كان اكثر النبلاء يبدون له العطف والتشجيع والاعجاب

أما هو فلم يكن - لطهارة نفسه - يشغل نفسه بالبحث عن أسلوب
هذا التحبب والاستلطاف ، كان يقوم بعمله خير قيام في نشاط
واستقامة ، فينفخ في البوق ، ويرفع أطراف ثوب سيده من الخلف ،
ويصحب منادى السلاح ، ويحمل أباريق المياه في المآدب ، ويقدم
الركاب للحاكم حينما يهم بالركوب الى غير ذلك من الخدمات

وكان همه الوحيد أن تقترب الساعة التي يستطيع أن يمارس
فيها شئون الحياة الخطيرة ، فكان يتألم إذ يرى نفسه ليس أكثر من
وصيف صغير !

لقاء غير متعمد

كان روميو يصطاد يوما على شاطئ نهر اديجي ، فرأى هناك مهرجا مسكينا قد ركع في خشوع ورفع يديه متضرعا والدموع تنهمر من عينيه . والى جانبه كلب يتلوى من الألم فتقدم روميو وهو يحمل سلاحه حتى وقف أمام المهرج وقال له : « ما لك تبكى أيها الرجل ؟ »

فقال المهرج وهو ينتحب :

— ان كلبى سيموت . انى اشعر بذلك ولن يفيد دواء فى خلاصه ، وقد كان هذا الكلب وسيلة لكسب رزقى . ماذا يحل بى بعد موته ؟

وكان الى جانب الرجل كلب آخر . وعلى كتفه قرد ، فخيل الى روميو ان هذا الكلب الآخر والقرد يشاركان صاحبهما حزنه وقلقه كأنهما شاعران مثله بالمصيبة المقبلة عليهم جميعا

وقال روميو للرجل : « أنت فى هذه الجهة منذ عهد بعيد ؟ »

فقال المهرج بعد ان زفر زفرة حرى :

— نعم يا سيدى ، انى أعيش فى هذه المنطقة منذ عدة سنوات . وقد طفت كل المدن الايطالية التى حول فيرونا . ونمت أحيانا فى قصور الأغنياء ، وأحيانا أخرى فى أكواخ الفقراء ، وذقت حلو الحياة ومرها . وكانت هذه الحيوانات — ولا سيما هذا الكلب الذى يفارق الحياة الآن — عدتى ووسيلتى فى كسب رزقى ورزق أسرتى !

وفى هذه اللحظة ظهرت فتاة صغيرة كانت تروح وتجيء على شاطئ النهر وتقطف زهورا ورياحين من بين الأعشاب النابتة هناك . فلما صارت الى جانب الكلب المحتضر وقفت وقالت :

— ما أتعس حظ هذا الكلب !. انه يتألم كثيرا !
فقال المهرج باكيا : « انى أفقد هنا كل ما أملك وكل أمل لى فى الحياة ! »

وتململ الكلب المحتضر فى موضعه واهتز جسمه ثم همد وانقطعت أنفاسه . فأخذ صاحبه يندبه وينتحب !

فقالت له الفتاة : « لا تعذب نفسك هكذا يا رجل . لا فائدة من كل هذا . »

ثم التفتت الى مريض كانت تصحبها وقالت لها :

— أعطى هذا المسكين بعض المال !

وكان روميو فى الوقت نفسه قد التفت الى حامل سلاحه وأمره

أن يعطى المهرج المسكين بعض المال أيضا ، فسارع التابع الى تنفيذ أمر سيده . وابتعد قليلا وأشار الى روميو إشارة خفية فأدرك هذا أنه يريد أن يسر اليه شيئا ، فلحق به مسرعا وسأله عما يريد ، فقال التابع :

— هلم نبتعد يا سيدي لئلا يراك أحد بجانب هذه الفتاة ؟

فبدت الدهشة في وجه روميو وقال لحامل سلاحه بعد أن اختلس النظر الى الفتاة :-

— انها تبدو ظريفة خفيفة الدم ، فماذا في الوقوف بجانبها ؟

فواصل التابع كلامه وقال وهو يتلفت حواليه بادی الاضطراب :

— احذر يا سيدي ، لو أن والدتك علمت بأنك اقتربت لحظة من هذه المخاوقة لنقمت عليك طوال الحياة !

فقال روميو : « لماذا ؟ .. انك تبائع ولا شك .. ان كلامك هذا غامض غريب ! »

فاقترب منه حامل سلاحه وهمس قائلا :

— انها من آل كابليتي !

فتجههم وجه روميو وابتعد من ذلك المكان مسرعا ، بينما كان المهرج مشغولا بحفر حفرة صغيرة ليوارى فيها فقيد العزير

وبعد سكوت طويل ، التفت روميو الى حامل سلاحه وقال له :

— هل من الحكمة ان يتباغض الناس هكذا ، حتى دون أن يعرف بعضهم بعضا ؟

فأجابه الرجل قائلا :

— لو شغل الناس أنفسهم بأن يميزوا الحق من غير الحق في الواجبات المفروضة عليهم لعمت الفوضى العالم . ان رؤساءنا يأمرؤن ، وعلينا ان نطيع دون أن نسألهم بيانا . ولو أنهم سمحوا بأن نناقشهم لما أمكنهم أن يحتفظوا بالسلطان الا على أيدي أناس مجرمين يسكتون على جرائمهم !

ووقف روميو قليلا ، والتفت وألقى نظرة خاطفة أخيرة على تلك الفتاة وهي تسير مع مرضعها حاملة ما جمعته من الزهور والرياحين . ومضى في طريقه على أثر ذلك صامتا متفكرا فيما انطوت عليه كلمات حامل سلاحه عن أوامر أصحاب السلطان ، ووجوب الامتثال لها دون مناقشة ولا جدال

في قصر آل كابلتي

كان قصر آل كابلتي قائما وسط مدينة فيرونا ، بالقرب من ميادينها القديمة . وحوته منازل عتيقة لا يصل اليها الهواء والنور . وكان من أقدم قصور المدينة وأعظمها فقد شيد منذ ثلاثمائة سنة

وكان آل كابلتي من أنصار البابوية . مثلهم في ذلك مثل رجال الاكليروس الخاضعين لسلطة البابا ، وبعض المحافظين على التقاليد القديمة ، والجنود وعامة الشعب . أما بقية أشرف فيرونا والارستقراطيون القدامى والقضاة والأغنياء والرؤساء العسكريون فكانوا يميلون الى امبراطور ألمانيا القوى حاكم البلاد الشمالية .

وكان آل كابلتي من أعظم العائلات المنتصرة البابا . ويعد قصرهم خط الدفاع الاول ، وهو قصر ضخم تقل فيه النوافذ الخارجية ، وقد شيد على طراز قصور العصور الوسطى بحيث يمكن أن يلجأ اليه الفقراء عندما يحدث غزو ويحتمون به . ولهذا اقيمت على جوانب سطحه الفسيح غرف خاصة تتخلل جدرانها الخارجية شقوق ليتمكن رصد الأفق منها . كما اقيمت على السطح أيضا متاريس ، وأدوات لقذف الحجارة وارصاص المصهور والقار المفلى على من يحاول اقتحام القصر ، أو الصعود اليه بوساطة الحبال وغيرها للهجوم على من فيه .

وكان في وسط القصر بناء فسيح ، به قناطر تقوم عليها المساكن والغرف ومعارض السلاح والتحف وأسلاب المعارك وما اليها من الاشياء الثمينة

ومن بين تلك الغرف كلها ، كانت هناك غرفة واحدة هي التي ربيت فيها جوليت الابنة الوحيدة للأسرة ، بها نافذة خارجية تطل على الجهة الشرقية ، وبها كذلك شرفة من الحجر المنحوت ، تطل على مساحة تضم عدة منازل منخفضة جدا ، فكان الناظر من تلك الشرفة يرى نهر الأديج والسفن والزواجر السابحة فيه ، كما يرى سهول لومبارديا بما فيها من زروع متنوعة

أما والدا جوليت فكانا يقيمان بغرفة في الطابق الاول من المبنى الرئيسي بالقصر ، تطل على فناءه . وبذلك كان رب القصر يستطيع أن يرى كل حركة فيه

وكان السيد كابلتي رب القصر وسيم الطلعة . طويل القامة . كثيف الشعر أسوده . له فم صغير وعينان براقتان تبدو نظراتهما قاسية حيناً وساخرة حيناً آخر ، وهو قليل الكلام يعتمد الإيجاز فيه ، فكان من ينظر اليه أو يسمعه لا يستطيع أن يشين حقيقة شعوره وما تنطوي عليه نفسه . وكانت يدها طويلتين قويتين جداً . على أنه في شبابه كان أقوى كثيراً ، وما زالت قوته تلك مما يتحدث به كل من عرفوه حينذاك ، ولاسيما من النساء ، فقد كن يروين عن قوته الخارقة

روايات أشبه بالأساطير التى تروى عن الأبطال !

وأما السيدة كابلتي فكانت على عكس زوجها طيبة القلب ، مستديرة الجسم . وردية اللون ، بادية الصحة ، يكاد خداهما المكتنزان يحجبان عينيها . وكانت سعيدة فى حياتها ، توجه كل اهتمامها الى اختيار أطيب الطعام والشراب ، والاستماع لأناشيد الشغراء المغنين ، وشم الروائح العطرية ، وانتقاء أغلى الملابس وأفخمها

على أن طيبتها لم تكن نتيجة ايمان بالفضيلة بل لأنها لم تكن تستطيع أن تؤذى ، ولأنها بطبيعتها كانت لا تحب أن ترى حولها وجوها عابسة غاضبة أو حزينة متأللة !

وطالما تمنى هذان الزوجان أن يرزقا ولدا ذكرا . ولكن الأقدار لم تنعم عليهما الا بنعمة واحدة هى جوليت . وقد ربيها بكل عناية ، ونشأها نشأة صالحة على أمل أن تتزوج زواجا سعيدا يصون أملاك الأسرة وساطاتها ويخلد اسمها !

وهكذا كان السيد كابلتي يعلق آمالا كبارا على الزوج المنتظر لابنته الوحيدة ، لا تقل عما كان يعلق من الآمال على أن تنجب له زوجته ولدا يرث قصره وأملاكه ويكون زعيم حزب البابا فى فيرونا !

كان والد جوليت قد اختار لها منذ ولادتها مرضعا طيبة القلب اسمها أوزيبيا

وكانت مهمتها أن تكون دائما الى جوار سرير الطفلة ، ولا سيما حينما يشيح لبن الأم ولا يكفى لتغذيتها . وقد قامت بهذا الواجب أحسن قيام ، وأظهرت من شدة العناية والسرعة فى تلبية مطالب الوليدة ليل نهار فى حب وإخلاص ملحوظين ، ما حمل الوالدان على أن يقررا اختيارها مربية ملازمة لابنتهما فى المستقبل

وكثيرا ما كانت جوليت فى السنوات الاولى من عمرها ، تدق بقبضتها فخذ أوزيبيا وصدرها ، وتشد شعرها وثوبها فى شدة وعنف ، فلا تبدى هذه أى تضر أو شكوى ، بل تتلقى ذلك بكل ارتياح وسرور

ولم تكن مطالب جوليت الصغيرة من مرضعها الحنون تنقطع طول اليوم . فهى لا تنى تصيح بها لتخبرها بأنها تشعر بالجوع ، أو العطش ، أو بالحاجة الى تبديل شئ من الملابس أو الرغبة فى نوع من أنواع اللعب واللهو ، وما الى ذلك من مطالب الاطفال

وحدث مرة أن سمعت المرضع الطيبة القلب جوليت وهى تهتف باسمها قائلة :

— أوزيبيا .. أوزيبيا .. تعالى انظرى !

ولما خفت اليها ، وجدتها تبكى وتنظر الى خدش بسيط فى يدها ، فأخذت فى تضميده ومواساتها فى حنان وهى تقول :

— لا تخافى يا عزيزتى لا تخافى !

وكانت أوزيبيا دائما تسارع الى تلبية مطالب جوليت ، مهما
تمكن تافهة . كما كانت تدخر لديها قطعة كثيرة من الحلوى اللذيذة
لتعطيها قطعة منها من حين الى حين

وفي بعض الأحيان كانت جوليت تستيقظ في فراشها ليلا وتنادي
مرضعها قائلة :

— أوزيبيا .. أوزيبيا ...

فاذا خفت اليها ، وسألتها عما تريد ، قالت لها جوليت في دلال :
— أريد أن أنام في فراشك ، لأنه أدفا من هنا !

وحيث كانت أوزيبيا يزايها الهدوء الذي يغلب عليها ، وتجيها
محتدة :

— ماذا تقولين أيتها الوقحة ؟ .. انى أريد أن أستريح وأنام ..
هل يجب أن أسهر على كل رغباتك ؟

على انها كانت لا تلبث قليلا حتى يعاودها الهدوء والحنان ، فتربت
كتف صغيرتها المحبوبة ، وتقول لها :

— تعالى يا عزيزتى . تعالى يا حياتى !

ويقدر ما كانت أوزيبيا تلقى من مضايقات جوليت ومعاكساتها ،
كانت تزدداد حبا لها وعطفا عليها وإخلاصا في خدمتها وتسامحا ازاء
هفواتها

وكثيرا ما حدث أن اتلفت الطفلة في عبثها قطعة من الأثاث ، أو
حطمت إبريق ماء أو مزقت قطعة من الدانتلا وما اليها ، فكانت المرضع
المخلصة تتبرع بالدفاع عنها ، وتدعى أنها هى نفسها التى اقترفت ذلك
لكى تجنبها ما عسى أن ينزل بها من عقاب

وهكذا نشبت جوليت على الثقة بإخلاص أوزيبيا ووفائها ،
فبادلتها حبا بحب ووفاء بوفاء

وكان طبيعيا أن يحرص والدا جوليت على أن يوفرا لها في
قصرهما كل ما ينبغى لتربيتها تربية صالحة جديرة بوريثة مجد الأسرة
وثروتها وسلطانها

وقد درباها على الطاعة قبل كل شيء ، طبقا لما تقضى به تعاليم
الدين ثم عوداها الا تنهور أو تندفع في قول أو عمل ، والا تكون لجوجة
أو مسرفة . وغرسا في نفسها وجوب اختيار الالفاظ في أحاديثها لئلا
تسوء سمعتها بين الناس . وعلماهما الحياكة وغزل الصوف ، لتستطيع
أن تقدر — وهى الغنية المترفة — ما يعانيه الفقراء الذين يؤدون أشسق
الأعمال مضطرين !

وكذلك حرص والداها على ألا يعلماهما القراءة والكتابة ، لأن
قواعد السلوك في تلك العصور الوسطى كانت لا تسمح بتعليم الفتاة أن
تقرأ وتكتب ألا اذا كانت تعد نفسها لتصير راهبة . وكان الاعتقاد السائد

فى ذلك العصر أن جهل النساء بالقراءة وكتابة مما يحول دون وقوع
كثير من الشرور . وكانت هناك روايات كثيرة وأقاصيص تدور حول
تأييد هذا المبدأ . فبواسطة الكتابة استطاع أبطال هذه الروايات
والأقاصيص أن يتصلوا بسيدات وفتيات شريفات نبيلات ، وأن يفسدوا
عقولهن وقلوبهن بعبارات ما كانوا يستطيعوا أن يخاطبوهن بها . وعلى
هذا لم يكن لأية زوجة ، حتى لو كانت ملكة ، أن تقرأ ما يرد إليها من
الخطابات التي ليست من زوجها بل عليها فى تلك الحالة أن تعقد مجلسا
لذلك ، وأن يتولى غيرها قراءة الخطاب !

وكل ما تعلمته جوليت أنها حفظت عن ظهر قلب بعض آيات
الانجيل ، لتتلوها عند الصلاة . كما تعلمت أن تمشى متئدة اذا دخلت
الكنيسة ، والا تحدث أية ضجة فى طريقها الى الموضع الذى تجلس
فيه هناك لسماع القداس . والا تدير رأسها أو وجهها ذات اليمين
أو ذات اليسار ، لأن البنت ذات التربية الصالحة يجب أن تنظر أمامها فى
خط مستقيم ، فاذا أرادت أن تنظر الى جهة أخرى فيجب عليها أن
تتجه إليها بجسمها ووجهها معا !

وعلموها أن تقاوم الفريزة ، والا تكون ميالة الى المخاصمة أو
الى المعاتبة والا تكون سريعة الغضب

وأخيرا علموها بعد أن صارت تحسن فهم الامور ، قواعد الآداب
والسلوك ، ومن بينها أنه يجب على المرأة ألا تدع أحدا يقبها الا اذا كان
شخصا هى كلها له ، والا يمس أحد بيده ثديها الا اذا كان زوجها !

السعد يوم في الحياة

بدأت جوليت فرحة مفتبطة جدا حين أتيح لها لأول مرة أن تحظى بمناولة القربان المقدس في الكنيسة (١)

وشعرت وهي متجهة الى المذبح في خطى وثيدة ، بأن حرارة شديدة لا عهد لها بمثلها تتقد في صدرها

ووصلت الى المذبح وهي في شبه غيبوبة ، تتوقع وحيا عجيبا عن شيء تؤمله في غموض دون أن تعرف كنهه !

وبعد أن انتهت من المناولة ، بقيت هنيهة واقفة في صمت وذهول ، وعيناها كالمطبقتين . ثم عادت الى الموضع الذي كانت تجلس فيه قبل المناولة ، شاعرة بأن جسمها أخف كثيرا مما كان ، وبأن قوة خفية تكاد ترفعها عن الارض ، أو أن الملائكة يحملونها على أجنحتهم النورانية غير المرئية

وفي مساء ذلك اليوم أقام آل كابلتي مأدبة عظيمة في قصرهم ، قدمت فيها ألوان مختلفة من أطيب الطعام والشراب ، وراح أفراد الأسرة والمدعوون من الانصار والأعوان يتنافسون فرحين في التهام لحوم الطير المشتهاة ، واحتساء أجود أنواع الخمور ، وعلت الضحكات من الرجال والنساء على السواء

وكان كل اثنين من الحاضرين يتناولان الطعام والشراب من اناء واحد ، وكأس واحدة . وكلما رفعت إحدى السيدات الى فمها كأسا لتجرع ما فيها ، سارع أحد الخدم ووضع اناء تحت ذقنها حتى لا يقع شيء من الخمر على ثيابها !

وشرب القوم في هذه المأدبة خمورا من اسبانيا ، وخمورا من قبرص ، وخمورا ممزوجة بالعسل أو اليانسون ، أو النبيذ أو الريحان

وكان الخدم يبدون نشاطا كبيرا في خدمة جميع الحاضرين من الأسرة والمدعوين ، وقد وزعوا على الفقراء كثيرا من قطع الخبز الأسمر وعليها قطع من اللحوم المشوية التي كان الآكلون يقطعونها بأصابعهم

ومع كثرة ما اكل القوم في تلك المأدبة لم يشعر احد بأى انزعاج ، لأن الخدم كانوا كلما أعلنوا عن لون من الطعام والشراب وأحضروه على المائدة ، جربوه هم أولا ، بعد أن يضعوا فيه غصن مرجان أو سن كركدن أو قطعة من رأس ضفدع وذلك لكي يتحققوا خاوه من أى سم

(١) مناولة القربان المقدس يتقدم لها المسيحيون احياء لذكرى « العشاء السرى » انذى جمع للمرة الاخيرة بين المسيح وتلاميذه

يمكن أن يدس فيه بايعاز أحد من أنصار الأمبراطور ، للتكاية بخصومهم
من حزب البابا !

في سنة ١٢٩٩ كان روميو قد بلغ السابعة عشرة من عمره ، وقد
ذاعت حينذاك اشاعات عن حرب توشك فيرونا أن تشعل نارها لارهاب
مدن بادوا وبارما وريجيو .

وكان القوم في أواخر القرن الثاني عشر اذا ارادوا حربا حشدوا
الجنود من الشبان المغرمين بالمغامرات واقتحام الأخطار مثل روميو . أو
من الرجال الذين بلغوا عنفوان قوتهم البدنية واتخذوا الحرب صناعة
لهم

وكان هؤلاء الرجال والشبان ايا كان الحزب الذي ينتمون اليه
تستهويهم هذه المبارزات الجماعية التي كان الناس في ذلك العصر
يسمونها حرويا . وكان كل خمسة أو ستة من المحاربين يؤلفون فصيلة
يتولى أحدهم قيادتها ويلحق بها بعض الجنود ليعنى أحدهم بالجياد ،
وآخر بأمر المؤنة ، وثالث بالأسلحة ، كما يخصص خادم أو خادمان لنقل
الأمثلة . وقد يتبع هؤلاء امرأة مهمتها خدمة الجميع

وهكذا كان المحاربون قليلي العدد ، ولكن خلفهم في المؤخرة عددا
كبيرا من الرجال يؤلفون المعسكر والحراس

وكثيرا ما كان الذين سبق لهم أن حاربوا متكاتفين في حرب سائلة
يجدون أنفسهم في الحرب الجديدة مضطرين الى مبارزة بعضهم بعضا .
ألا أن الجميع مع ذلك كانوا يحاربون في عزم ودون أي خداع أو مواربة ،
أيا كان الحزب الذي ينتسبون اليه

ولما اقتربت ساعة القتال طلب روميو من أبيه أن يأذن له في أن
يشارك فيه ، فأذن له وكلف بونافنتي الذي دربه على استخدام السلاح
أن يرافقه ويكون مستشارا له . وكان ذلك في شهر مايو

كان جيش فيرونا مؤلفا من الفرسان ، يصحبهم عدد كبير من
المشاة لكن هؤلاء لا يحاربون بل يبقون في المؤخرة لحراسة الذخيرة
والمؤونة وخدمة المحاربين الفرسان

وكان أكثر هؤلاء وهؤلاء من الهاربين من السجن والمعتقلات .
وممن نزلت بهم عقوبات قطع الأذان . ولذلك كانوا اذا صدرت
الأوامر بالهجوم والضرب والطعن كثيرا ما يهربون تاركين المؤونة والعربات
التي تحملها . أما اذا انتصروا فكانوا يركضون سراعا في مقدمة من
يحرقون المزارع والحاصلات ، ويقطعون أشجار البساتين ، ويذبحون
قطعان الماشية ويسمون الآبار . ويشنقون الفلاحين ويعتدون على
الفلاحات أو يعذبونهن !

ومع أن عدد المحاربين كان قليلا ، كان منظرهم يدخل الرعب الى
القلوب ، بشواربهم المرتفعة ، وأثوابهم المزركشة وسيوفهم ذات الحدين
والنصال الطويلة الحادة

وكانت فرقة المشاة في جيش فيرونا تتألف من ألف رجل من حاملي الأقواس والسيوف ، يمشون بأقدام قوية تهز الأرض تحتها ، وهم يرتلون الأناشيد الحماسية والدينية ، ويصيحون مهددين متوعدين. الخصوم بالويل والموت الأليم !

وكان الفرسان الألف يسرون في المقدمة كالتمثيل ، تغطيهم الدروع السابغة من قمة الرأس الى أخمص القدم ، وأسلحتهم تلمع تحت أشعة الشمس ، وخيولهم مغطاة بنسيج من الزرد يحميها من ضربات الخصوم حين يشتد الهجوم بالرمح والسهم

وقد تعود أولئك الفرسان أن يطعنوا بأسنة رماحهم وجوه خصومهم حاملي الأقواس ، كما تعودوا أن يخترقوا صفوف المشاة. ويطعنوا الهاربين منهم . وفي كثير من الأحيان كانوا يهجمون على العدو متكاتفين كأنهم قطعة واحدة ، وقد تعودت جيادهم حومة القتال فكانت تنطلق بهم تسابق الريح بين صفوف الأعداء !

وانخرط الشاب روميو مونتيكي في سلك هذا الجيش ، وكان ريش خوذته القرمزي وصلابة الخوذة التي تغطي وجهه ، واحكامه شد غطاء كتفيه وذراعيه وفخذه وركبتيه ، مما جعله يعتقد أنه لن يصاب بأي ضربة تورده حتفه

ولهذا ذهب الى القتال بنفس واثقة وعزم ثابت وقلب فرح مثل كل الشبان عندما يذهبون للاشتراك في مغامرات خطيرة !

وقبل أن يغادر قصره رأى إحدى الخادمت تذرِف الدمع فصاح بها : « لماذا تبكين ؟ »

فقالت الخادم : « لأنني أخشى أن تقابله هناك في الحرب »

فسألها : « من هذا الذي قد القاه هناك ؟ »

فقالت : « الرجل الآتي من الشرق ، لقد قال المنجم جوالتيروس يوم ميلادك أنه يجب أن تحاذره . وقد سمعت ذلك المنجم يومئذ وهو يقول ذلك ورأيت في وجهه عبوسا وتفكيراً ! »

فضحك روميو وقال لها :

— دعني هذا الخوف . قد سمعت أنا أيضاً هذه النبوءة ، عن الرجل الذي يجب أن تحاذره مع أنه ليس خصماً لي . وقد قيل أنه سيكون جالساً حين القاه . فهل من عادة المقاتلين أن يحملوا معهم مقاعد ؟ كما قيل اني سأعطيه مالا ! فهل أنا ذاهب الى ميدان القتال لأوزع مالا أم أوزع الضربات القاتلة ؟ لا . لا . لا . لا داعي لأي شيء من الجزع أو الخوف بسبب نبوءة غير معقولة كهذه !

ثم قبل روميو خدي الخادم ، وركب جواده في رشاقة ، ثم همزه فانطلق به الى حيث يلحق بالجيش في المكان الذي تجمع فيه لبدء السير الى الميدان ، وكان الخدم والفتيات فوق سطح القصر يلوحون لسيدهم بأغصان الأشجار ، هاتفين له بالنصر وطول الحياة !

سار جيش فيرونا لملاقاة أعدائه في ساعة مبكرة من الصباح ،
وكان الجو لا يزال رطبا . وعند الظهر . توقف الجيش . . لتناول الغداء
والراحة قليلا ، ثم واصل زحفه وحوافر خيله تلك الطرق دكا . وكان
إذا رأى في طريقه شجرة مثمرة قطعها رجاله لأخذ ثمرتها . وإذا مروا
بقطيع من الحيوان استولوا عليه ليكون طعاما لهم . وقد يذبحون دجاجة
للاستيلاء على بيضة في بطنها !

وأخيرا لاح العدو عند أقصى الأفق . ورائه الطليعة . فوقف
الجيش في الأماكن المناسبة للقتال . واشتبك رجال فيرونا مع جيوش
بريشيا ومانتو واحتدم العراك في شدة واستبسال . ولما خيم الظلام
وكفت الجيوش عن القتال ، أحصى الفريقان ضحاياهم فاذا كل فريق
قد فقد اثني عشر من رجاله وحوالي ثلاثين جوادا

وحدث أثناء الليل أن تسلل بعض الجنود والأتباع من الفريقين
إلى دير للراهبات قريب من ذلك الميدان . ومن العجيب أن هؤلاء
وهؤلاء سرعان ما ألف بينهم حب السلب والفجور فهجموا على الدير
معا ، وأخذوا ينهبون ما تقع عليه أيديهم ويذبحون من لا يستسلمن لهم
من الراهبات !

ولما علا الصباح والجلبة وظهرت حقيقة الحال لقواد الفريقين، هرع
بعضهم إلى الدير ، وأخذوا يفرقون المعتدين بالسياط حتى طردوهم من
الدير . على أن هؤلاء الجنود والأتباع من الفريقين ، كانت الخمر قد
لعبت برؤوسهم ، فتجمهروا أمام الدير ، وراحوا يتعانقون ويسكبون
الدموع متعاهدين على أن يكونوا أخوة إلى الأبد . وهكذا اضطر القواد
إلى استعمال الكراييج مرة أخرى ليردوا الجنود السكارى إلى
المسكرات !

لما بزغ الفجر رأى عساكر فيرونا أن مواقعهم مناسبة ، لأنهم كانوا
على مرتفع من الأرض تمتد أمامه السهول ، فجمعوا كل ما كان عندهم
من الدروع ووضعوها أكدا سا بحيث يراها الأعداء ، فيخيل إليهم أنها
جيش احتياطي عظيم !

ثم استؤنف القتال في وحشية ، وأبدى كل من الفريقين براعة
وشجاعة عظيمتين ، ولكن النصر كتب أخيرا لجيش فيرونا ، فأسر أربعين
من جنود الأعداء ، واستولى على عدد كبير من العربات والمؤونة . ثم عاد
في فخر وزهو إلى المدينة حيث قتل الأسرى ما عدا اثني عشر منهم
أرسلهم إلى بريشيا ومانتو ، لينشر منظرهم الذعر والهول بين أهليهما
الناثرين .

وفي تلك المعركة أصيب روميو أصابتين أذ مس سهم كتفه دون
أن يصل النصل إلى اللحم والأعصاب ، ولمس دبوس صدره فحطم
ضامعين فيه ، وتدفق الدم على ثيابه ، وأغمى عليه . وكان حامل سلاحه
قد أفترق عنه في معمرة القتال ، فظن الجنود الذين حوله أنه مات
وتركوه وشأنه في الميدان !

وانعشته رطوبة الجو في الليل ، فأفاق واستوى جالسا ، واخذ يتلفت
حواليه فرأى في ضوء القمر جوادا منفردا يرعى بعض الأعشاب ،
فتحامل على نفسه ونهض فسار اليه وامتطاه في عسر . ولما وصل الى
المعسكر استقبله رفاقه بكل ترحاب مهنئين بالنجاة !

وقد تحمل روميو آلامه في صبر ، ولم يبد أى تضرر أو شكوى ،
بل أبى أن يضمدا جراحه واكتفى بأن شرب بعض المنعشات

وبعد أن شرب قواد الجيش وجنوده نخب الانتصار ارسى روميو
على الأرض مثل زملائه وغط في نوم عميق . وفي صباح اليوم التالي
شعر بحمى خفيفة فمسحوه بالخمير والزيت . وقد شفى بعد ذلك لا
بفضل العناية به بل بقوة اعتقاده بأنه لم يكن مريضا !

روميومقت النساء

عاد روميو الى القصر ، فخلع عن جسمه درع جلد الثور التي لم تفارقه منذ ثمانية أيام ، وكانت رائحة العرق والحديد والجلد تفوح منها بقوة ، مما زاده شعورا بالزهو والفخر ، وجعله ينظر الى نفسه على أساس أنه صار رجلا له شأنه وخطره بين الرجال !

ولاحظ في الأيام التالية تغير النظرات اليه من النساء اللائي يلقاهن في الطريق . وكان من عادة الشبان الذين في مثل عمره أن يميلوا غالبا الى الملذات ، وأن يلقوا بأنفسهم في مفاخرات تافهة عديدة يظهر فيها غرامهم . أما روميو فلم يكن يأبه كهؤلاء بصغائر الأمور . بل كان ورعا تقيا يحترم عقله وجسمه ، وهكذا عاد بعد أن انتهت الحرب الى ممارسة التمرينات العسكرية ورياضة الصيد والفروسية

وكان حامل سلاحه كثيرا ما يقول له :

— كن على حذر دائم من الفتيات !

وكذلك كان أبوه لا يفتأ ينصح له ويردد على سمعه أن تلبية نداء الجسد مفسدة للنفس ، وأن على الرجل العاقل أن يحذر المرأة ويبتعد عنها ما استطاع الى ذلك سبيلا .

وكان الشاب يهز رأسه مبتسما وهو يستمع لهذه النصائح ، ثم يقول :

— لا خوف على من هذا الخطر ، فأنا بطبعي أمقت النساء !
وكان هذا الجواب يملأ نفس حامل سلاحه إعجابا به فيقول له :

— أن السماء لتحملك مادمت تفكر هكذا ، ولا شك أن سيديا نبيلًا مثلك ياسيدي يجب أن يكون لزوجته فقط ، فأن أخطار الشيطان أشد كثيرا من أخطار الحرب . فإذا أمكنك أن تتغلب على أغرائه كنت جديرا بأن تشرف أسمك وأسرتك

والواقع أن روميو كان يمقت النساء ، كما كان يخجل منهن في الوقت نفسه . ومن هنا كان شديد الحرص على اجتنابهن ، وكان يرى أن شريكة حياته في المستقبل ، يجب أن تكون أرفع قدرا وأظهر نفسا من جميع النساء ، وكثيرا ما كان يفكر في اختيار هذه الشريكة الموافقة التي تتوفر فيها هذه الشروط ، ولكن غريزة خفية كانت تدفعه الى الاحجام والتأجيل

ولم يكن روميو يعلم أن حرصه على اجتناب النساء قد زاد في أعجابهن به وميلهن إليه !

وكان العجب يأخذ منه كلمسا لاحظ نظرات التحجب والاغراء التي توجهها اليه نساء المدينة فضلا عن الفتيات الخاديات

وحدث يوما أن اعترضت طريقه إحدى غائيات فيرونا ، وصرحت له بأعجابها به ، واستعدادها لاستقباله في أى وقت بمنزلها ، دون أى مقابل !

وتوالت الرسائل الغرامية التي كان الخدم يحملونها اليه من سيدات وفتيات مختلفات . ولما كان يجهل القراءة والكتابة فإن كاهن القصر كان يقرأ له هذه الرسائل . وكان ماتضمنه من العبارات الغرامية الحارة مما ينبفخ فيه روح الشمم والكبرياء والاباء ، فيهرز كتفيه ساخرا ، ويعقب على هذه العبارات بضحك الاستخفاف والاستهزاء !

ولم يسع كاهن القصر الا أن يعجب بسلوك روميو ، وراح يقول له :

- أن النساء كلهن فاسدات ! . ألا ترى أنه اذا نام الرجل فان المرأة توقظه ، في حين انه لا يجرؤ أن يتحرك بجانبها وهي نائمة مخافة أن يوقظها . أن المرأة حين تجد زوجها حزينا تقول للجيران « انه ولد في ساعة نحس » ، أن الرجال المتزوجين كلهم مساكين فالذى يتزوج منهم امرأة نبيلة عليه أن يغسل رجليها ويرفع اطراف ثوبها . وزوجة الفقير تكلفه ما لا يطيق وتفرض عليه أن يقوم لها مقام الخدم . والزوجة الشابة تضعف زوجها لتعيب عليه ضعفه ، وتستبدل به من هو أقوى ، والزوجة العجوز تنغص عيش زوجها بغيرتها وكيدها له . وهكذا يا بني كل النساء لا يمكن أبدا أن يكن راضيات ، فالحرب مستمرة الى الأبد بينهن وبين الرجال !

ومرة أخرى قال انكاهن لروميو بعد أن قرأ له بعض تلك الرسائل

- أن الشيطان صاحب صيدلية فيها أنواع كثيرة من السموم التي هي الخطايا ، وهو يضعها في علب جميلة مزخرفة ، ويجعل مذاقها حلوا ليفرى الناس بالاقبال عليها . فاذا شئت أن تعيش في سلامة وأمان ، فاحترس من النساء ، فهن شر مغريات الشيطان !

مرض جولييت

كان الشتاء التالى فى مدينة فيرونا شديد البرد عاصفا بغزير المطر وقد مرضت جولييت خلال هذا الشتاء . ولم تكن بعد قد جاوزت الثالثة عشرة من عمرها ، لكنها كانت تختلف كثيرا عن أترابها من الفتيات المراهقات فلم يمتلئ جسمها أو ينتفخ صدرها أو تتبدل هيئتها ، بل بقيت برغم نموها السريع رشيقة القد معتدلة الجسم ، فى عنقها وكتفها حلاوة ، وقد برز صدرها قليلا ، وبقيت عيناها السوداوان تحيط بهما أهدابهما الطويلة وتشع منهما الحيوية والطهارة ، كما بقى انفها الصغير المستقيم ، وفمها الدقيق ، متناسقين منسجمين . ولو ان فنانا ممن يصنعون التماثيل الدينية رآها حينذاك لوجد فيها خير نموذج لصنع تمثال رائع لقديسة طاهرة ، أو ملاك كريم

وبدأ مرض جولييت فى الوقت الذى اشتد فيه الضيق حتى جمد الماء فى الأباريق . وكان ذلك فى ذات مساء اذ شعرت بارتفاع حرارتها واضطراب تنفسها ، ولاحظت ذلك أمها فساورها القلق والخوف عليها ، فأمرتها بأن تلزم سريرها ، ثم سارعت الى طلب طبيب شهير فى المدينة ، فزارها فى المساء نفسه وجس نبض الفتاة ونظر فى عينيها مليا ، ثم نظر نظرة فى النجوم وقال :

— من حسن الحظ أن القمر فى ربه الاول ، وعلى هذا يكون العلاج فى هذه الليلة ذا تأثير مفيد !

وعلى اثر ذلك قرر الطبيب أن يبدأ العلاج بالفصد ، وأمر باغلاق النافذة لأن الفصد فى ذلك انعصر لم يكن يجرى الا فى الظلام . وجاء الحلاق الذى دعى لفصدها مسرعا ، ومعه مساعده ، وسرعان ما بدأ مهمته فأخذ يفصد قدم الفتاة ، بينما مساعده يتلقى قطرات الدم فى اناء من القصدير .

ولم يشترك الطبيب فى جراحة الفصد هذه ، لأنه لم يكن مما يليق بالطبيب حينذاك أن يمس موسى أو شفرة !

وبينما الدم يسيل من كعب الفتاة ، أخذ الطبيب يتحدث الى الحاضرين وهم سكوت احتراماً له فقال :

— أن دم الانسان يزن خمسين لترا ، ومن الممكن أن نخرج منه عشرين لترا دون أن يكون فى هذا خطر على حياته أو صحته !

ثم سكت قليلا ، وأستأنف كلامه فقال :

— لقد شهدت فصد أطفال كثيرين حديثى الولادة ، وعالجتهم فكان النجاح حليفى ، وكتب لهم الشفاء جميعا !

ولما أنتهى الحلاق من مهمته تنحى للطبيب الكبير عن مكانه ، فمد هذا يده وضغط عرقا في قدم الفتاة ، ثم أخرج من كيس كبير معاق يكتفه حقا صغيرا فيه مرهم ، وقال للحاضرين :

— هذا المرهم مصنوع في مدينة كبيرة في بلاد الهند . وهو مركب من ثلاثمائة واثنين وسبعين نوعا من الاعشاب النسادرة الثمينة ، ومن شحم تنين أبيض : وساتركه عندكم ليوضع قليل منه عند كبد الفتاة ، ويفرك به ذلك الموضع بعناية ، فالكبد من الاعضاء الاربعة الرئيسية التى يتجمع فيها الدم والاخلاط . وما العروق التى فى الجسم الا قنوات داخلية فيه كالقنوات التى تجرى تحت الارض ومنها يخرج الماء من أى موضع نحفره فيها . وهكذا يتضح لكم لماذا يخرج الدم من أى موضع فتحناه فى الجسم ، على أن المنبع الاصلى للدم فى الجسم ليس سوى الكبد !

ثم جس الطبيب جبين جوليت ، والتفت الى الحاضرين قائلا :
وسبابته مازالت على جبينها :

— حينما يكون القمر فى برج الحمل المتعاق بالرأس ، يتجه نفوذه الى ناحية الرطوبة ، وحينئذ يكون الرأس فيه رطوبة ، ولما كان أى جرح لا يمكن أن يشفى وفيه عفونة ، فالواجب يقضى بأن يجفف رأس المريض أولا وطرده الأخلاط منه . وللوصول الى ذلك يجب أن نلجأ الى لزقة مبللة بلبن امرأة ساخن . فهل فى القصر خادم تستطيع أن تعطينا اللبن اللازم لهذا الدواء ؟

فقال السيد كابالميتى :

— نعم ، يمكن أن نجد خادما تعطينا اللبن المطلوب

فبدا البشر فى وجه الطبيب وقال :

— فى هذه الحالة يمكن أنؤكد الشفاء . ولكن يجب ألا ننسى ونحن نستنجد بالرب كى يشفى المريضة أن نعلق فى عنقها قطعة من الحجر المسمى « سيلبدان » وهو يوجد عادة فى حويصلة طائر الخطاف !

ثم اضاف الى ذلك قائلا :

— احرصوا جيدا على أن تمسكوا بالخطاف الذى يستخدم لهذا الغرض قبل أن يمس الارض !

وهنا أخذت السيدة كابالميتى تبكى وقالت للطبيب :

— ليس فى ايطاليا الآن ياسيدى اثر لجنس هذا الطائر ، وليس يخفى عليك أنه يكون هنا فى الربيع فقط ، ونحن الآن فى الشتاء !

واصفى اليها الطبيب وهو يومئ برأسه موافقا ، ثم وضع يده على عينيه ، واستغرق فى تفكير عميق ، ليبحث عن مخرج من ذلك المأزق ، وأخيرا قال لها :

- لا بأس يا سيدتي ، يمكن أن تستعملوا أثرا من أحد أعضاء
المريضة نفسها ، على أن يكون هذا العضو مما فوق الكتفين كالسن
والشعر ، ولا شك في أن هذا الاثر يقوم مقام ذلك الحجر الذي أشرت
إليه !

وانصرف الطبيب على أثر ذلك مودعا بالشكر والاكرام
وعالج آل كابلتي إنتهم بالطريقة التي رسمها ، وبعد أسبوع
دخلت جوليت في طور النقاهة !

محاولة عقد الصلح

عندما يطرد الربيع الغيوم من الجو ، تنعش روح الحب حيوان البر وطيير السماء . وكذلك الانسان تثور فيه نشوة الانتعاش بالحب .

ولا تقف حرارة القوة التي يولدها الربيع في عروق الناس عند حد حب الانتاج ، بل توقف غريزة المنافسة والاحقاد في قلوب البشر !

وحين تجف الارض يسهل مرور عربات الحرب وركض الخيل ، ويمكن اخفاء حركات الجنود بواسطة النباتات والأغصان والأشجار .

وفي المدن ، تهيج الفرائز في قلوب الناس . وتضطرم نيران الخصومات . وكثيرا ماتنشب المنازعات لأسباب تافهة لم يكن الناس ليأبهوا لها أو ليتحدثوا عنها ، لو أن الربيع لم يكن قد جاء وحل محل الشتاء !

وهكذا لم يكد الربيع يقبل على فيرونا ، حتى نشأ فيها خلاف شديد بين أنصار البابوية الملتفين حول آل كابلتي وبين أنصار الأمبراطورية الذين يتزعمهم آل مونتيكي

وتطور الخلاف سريعا ، ففي شهر مارس من ذلك العام وجد المارة في أحد الأزقة جثة رجل من الفريق الأول ، ولم يمض قليل حتى هجم زملاؤه على منزل أحد أفراد الفريق الثاني ، فقتلوا كل من فيه ، وقذفوا بالآثاث من النوافذ ثم أحرقوه !

وفزع البابويون الى آل كابلتي . والامبراطوريون الى آل مونتيكي . ونفخ في الأبواق ، وساح كل نبيل رجاله وحرصهم على القتال وأبدى روميو حماسة شديدة ، وأخذ يستعد للسير ركضا والمشعل في يده ليوقد النيران في أحياء المدينة التي يسكنها البابويون وقبل أن يغادر روميو قصر أبيه ، ظهر على الباب رسول من قبل السيد « برتولوميو ديلا سكالا » حاكم المدينة الجديدة ، ثم دخل الى فناء القصر يخف به اثنان من النافخين في الأبواق ، فلما رأى الاستعداد العسكري قائما هناك على قدم وساق . صاح بصاحب القصر محذرا معلنا أن الحاكم لا يريد غير السلام والهدوء ، وأنه لن يسكت على أي نزاع بين أهل المدينة

ولزم الامبراطوريون دورهم ساخطين متذمرين . ثم أعلن الحاكم على اثر ذلك أنه رغبة في اخماد المنازعات قرر أن يحتفل قريبا بعيد عظيم ، على أن يشترك في هذا الاحتفال جميع أهل المدينة

وكان لهذا كله اثر في تهدئة الخواطر ، وتناسى الاحقاد والخصومات فترك أهل المدينة ما كانوا فيه من استعداد للقتال ، وأخذوا يهيئون

أنفسهم لذلك الاحتفال العظيم ، وللاستمتاع بما ينتظرهم فيه من أسباب البهجة

وكان الاحتفال رائعا حقا ، وهناك في قصر الحاكم على ضفاف الأديج ، اجتمع أكثر سكان المدينة ، من النبلاء وذوى الوجاهة وغيرهم وقد ساد بينهم الصلح والوثام ، فأكلوا هنيئا وشربوا مريئا وغمرتهم مريحة من انطرب والحبور

كان السيد بارتو لوميو ديلا سكالا قد خلف أباه في منصب حاكم المدينة منذ اليوم العاشر من شهر سبتمبر سنة ١٣٠١ . وقد بدأ عهد حكمه بإعلان رغبته في نشر السلام والأمن في ربوع المدينة ، إذ ليس هناك مطلقا ما يدعو الى أن يتقابل آل مونتيكي وآل كابلليتي ، وأن ينقسم سكان المدينة فريقين متباغضين متعاديين !

وحدد السيد ديلا سكالا يوم الأحد التالي موعدا يجتمع فيه آل مونتيكي وآل كابلليتي في ساحة الكنيسة ، وبعد انتهاء القداس يتقدم السيد مونتيكي بصحبه ولده روميو نحو السيد كابلليتي . وبعد أن يباركهما المطران يتعانقان علنا ويلثم كل منهما فم الآخر ايدانا بالصلح والوثام بين الأسرتين !

واستيقظت المدينة في صباح ذلك اليوم العظيم على زئير الأجراس ، ونشرت الأعلام وانشارات على واجهات القصور والدور . وعلقت قرب الخمور على أعواد . ومدت الموائد حافلة بألوان مختلفة شهية الطعام والشراب ، وتقاطرت الى ساحة الكنيسة جموع الفقراء والبؤساء وذى العاهات من جميع أحياء المدينة ليأكلوا ويشربوا ويطربوا ، مشاركين في أفراح ذلك المهرجان العظيم .

وقبل الظهر بساعتين كنت الساحة تفص بالناس . وبعد الانتهاء من صلاة القداس فتح باب الكنيسة ، وخرج السيد ديلا سكالا لابسا ثوبه المطرز بالذهب تمسك أطرافه من الخلف بعض الوصيفات . واخترق الساحة في موكبه هذا بين الاجلال والتعظيم ، ثم جلس فوق المنصة التي أعدت لجلوسه هناك

وسادت الساحة فترة سكون قصيرة ، قطعتها نغمات هادئة ، تصاحب مرتلى بعض الأناشيد الدينية ، ثم بدأ آل مونتيكي يتجمعون في ركن من أركان الساحة يتقدمهم عميدهم والسيدة قرينته وأبنتهما الشاب الجميل روميو . وارتفعت دقات الأجراس ، وأصوات المرتلين داخل الكنيسة ، ثم ظهر آل كابلليتي يتقدمهم عميدهم يعلو وجهه بعض الوجوم وبجانبه قرينته ممسكة ذراعه داعية اياه الى اظهار الاغتراب والابتهاج !

ووقف الفريقان كل منهما تجاه الآخر . ثم نهض السيد ديلا سكالا ، ومشى بينهما في خطى وثيدة يتبعه حاملو سلاحه وضباطه ،

ورجال الكنيسة وعلى رأسهم المطران . ووقف الحاكم الحازم بعد خطوات ، ثم رفع يديه ووجهه طالبا العون من الله . وعلى أثر ذلك أشار الى رئيسي الأسرتين ليحضرا اليه ، فمشى كل منهما نحوه في صمت حتى وقفا أمامه ، فأمسك يديهما وأبقاهما مجتمعتين بين يديه ، وتقدم المطران فباركهما ، بينما علا هتاف الشعب ، واختلط بدقات الأجراس المدوية وأصوات الأبواق

ولما تعانق النبيلان ، أراد الحاكم أن يزيد في قوة تصافيهما فمسك يديه وأمسك بهما كتفيهما ، مقربا فم كل منهما من الآخر ، لتكون القبلة المتبادلة أشد وأفعل !

استجاب النبيلان : السيد مونتيكي ، والسيد كابلتي ، لرغبة الحاكم ، فأخذ كل منهما يقبل فم الآخر في شدة وحرارة بين ضجة الاحتفال

وحدث أن دخات شعرات من لحية السيد كابلتي في فم السيد مونتيكي وهما يتبادلان القبل ، فلما شعر بها على طرف لسانه ، بدا في وجهه تقزز شديد ، ثم ارتد فجأة الى الوراء في اشمئزاز وامتعاض ، ومد يده الى فمه فأخرج بين سبابته وإبهامه شعرة من تلك الشعرات ، ثم راح يخرج لسانه ويحركه في سرعة كمن يبصق ليطرد بقية الشعرات ، التي لصقت بأسنانه ، وفسر آل كابلتي هذه الحركة بأنها إهانة موجهة اليهم في شخص عميدهم . وفي مثل لمح البصر تحرك الشاب تيبالدو ابن أخى السيد كابلتي حركة مسرحية وصاح قائلا :

— هذه إهانة لا يمكن أن نقبلها !

ثم استل سيفه : واقتدى به من كانوا حوله من أفراد الأسرة وأنصارها . وسرعان ما امتشق النبلاء من الفريق الآخر سيوفهم استعدادا لما قد يحدث !

وهنا صاح السيد ديلا سكالا بالفريقين قائلا :

— ما هذا أيها السادة ؟ الزموا الهدوء والسكون !

ثم تقدم وعيناه تتقدان بالفضب ، ففرق أنصار النبيلين الذين كادوا يلتحمون ، وكذلك صنع المطران فمد عكازه ليحول بين هؤلاء وهؤلاء على أن سلطة الحاكم المطلقة وسلطة المطران ممثل الله لم تكفيا لتهدئة الخواطر الشائرة ، وإعادة السلام الى النفوس التي كانت لا تزال تفيض بالحقد والبغضاء !

وهكذا أخذ الفريقان يتبادلان السباب وعبارات التحدى المثيرة ، وفشلت محاولات الحاكم لاسكاتهم ، وسرعان ما عادوا الى امتشاق السيوف وأخذوا يتضاربون بها !

وأمر الحاكم بأن تسد الطرق المؤدية من الساحة الى داخل

المدينة ، منعاً لانتشار النبا المزعج وزيادة الهياج ، ولكن أوامره وتعليماته لم تنفذ بدقة ، فوصل النبا الى كثيرين ممن كانوا خارج الساحة من أنصار الفريقين ، وهرعوا اليهما مسلحين بما وصلت اليه أيديهم من سيوف ورماح وغيرها . وكان الطريق الى الساحة زاخراً بأفواج أخرى ممن جذبتهم من الحقول البعيدة أصوات الأجراس والأبواق الداعية الى المشاركة في الاحتفال . بينما أثر كثيرون أن يشاركوا فيه من بعيد ، فبقوا في المزارع وجنابات المدينة ينشدون ويرقصون ويتعانقون ، وهم لا يدرون شيئاً عما يجري في الوقت نفسه داخل الساحة من القتال !

الفصل الثالث

روميّون بين النساء

جولييت في خطر

كان تيبالدو كابلليتي ابن عم لجولييت ؛ وفي مثل سنها ؛ وقد كسب أبوه أموالا طائلة من التجارة ؛ وأقصى أمانيه ان يزوجه جولييت ابنة أخيه الأكبر عميد الأسرة ليكون شريكها فيما تراث من لقب وجاه وسلطان

ولم يكن السيد كابلليتي أبو جولييت يمانع في أن يتم هذا الزواج ، بل كان يرى أن تيبالدو أحق بجولييت من سواء . ولكن زوجته كانت كلما خاطبها في هذا الشأن لا تكاد تكتم نفورها ، ثم تسارع الى تغيير مجرى الحديث ، بعد أن تؤكد لزوجها أن ابنتهما لم تبلغ بعد السن المناسبة للزواج .

وكان هو يتظاهر دائما بموافقة على رأى زوجته ، ثم يضيف الى ذلك قوله :

— لا ضرر مطلقا في أن ننتظر ، فجولييت مازالت صغيرة حقا . على أنه من الحكمة أن نبقى الباب مفتوحا لتيبالدو وأبيه ، منعاً لاثارة الغضب والنفور !

أما جولييت نفسها ، فكانت تميل الى تيبالدو منذ حداثتهما وتعجب بتلفه وتظرفه أمامها ، كما تقدر حرصه على الإمتثال لأمرها ؛ ومسارعته الى تلبية كل ما تبديه من رغبات .

وكان تيبالدو قصير القامة ، ذا رأس كبير يتدلى شعره المتهدل حتى يكاد أن يلتصق بحاجبيه الكثيفين . وكانت ذقنه المربعة تضفي على هيئته شيئا من الغلظة والفظاظة ، ويؤكد هذا أنه كان حاد الطبع سريع الغضب مرهف الأعصاب شديد العناد

على أنه في حضرة جولييت كان يبدو دائما ظريفا مطيعا ، يحسن الاصغاء الى كل ما تحدثه به ، ويضع نفسه في خدمتها باخلاص . ولم يكن ينسى أن يقطف الازهار التي تعجبها ويقدمها لها في اجلال ، وفي الرحلات التي كان يسمح لهما بالخروج فيها معا لاستنشاق الهواء النقي والتمتع بحرارة الشمس ، كان يأخذ بيدها ويعاونها على السير ويخلي العقبات التي تعترض طريقهما . وكثيرا ما اصطحبها في رحلة بالزورق في النهر ، حيث كانت هي تجلس هادئة وادعة منسحرة الصدر ، في حين يمضي هو في التجديف بساعديه القويين ؛ في غير كلل ولا ملل !

وفي بعض الاحيان كانت جولييت تقطع تأملاتها لتتهف به قائلة :

— تيبالدو . . . تيبالدو . .

فكان يلتفت اليها مرهفا سمعه لما تريد أن تقوله ، دون أن ينقطع عن التجديف ، وحينئذ تسأله :



جوليت في خطر

- هل تعجبك عيناي ؟ ... وهل يروقك أن تنظر الى وجهي ؟

وكان الشاب يجيبها بصوت هادىء حنون :

- ليس فى فيرونا تلها امرأة ، تستطيع أن تدانى جوليت فى جمالها ورسافتها ولبظها ورفتها ، فضلا عن سمو مكانتها . وليس فى الدنيا كذا ما يملأ فؤادى سرورا وبهجة كما يحدث حين أراك يا ذات الملاحه والبهاء !

وفى بعض الاحيان كانت تفاجئه سائلة :

- قل لى يا تيبالدو . . ماذا تصنع اذا طلبت اليك أن ترمى بنفسك فى ماء النهر الان ؟

وهنا كان تيبالدو ينتصب واقفا فى الزورق ، ثم يهم بخلع سترته وهو يجوب قائلا :

- ان حياتى كلها ملك يمينك ، ولك أن تتصرف فى فيها كما يحلو لك !

وقالت له وهى تحاوره خلال نزهتها ذات يوم :

- اذا سألتك أن تكف عن التجديف لكى تضطجع هنا تحت قدمي ، فهل تجيبنى الى ذلك راضيا ؟

وقبل أن يجيبها واصلت كلامها فهتفت به قائلة :

- لا تقل شيئا . ولكن اقترب منى ، وانظر الى السماء ! . . ان منظرك وأنت كذلك ألطف كثيرا من انهماك فى التجديف ، ومن تقطيبك ما بين حاجبيك الكثيفين كأنما تفكر فى مشاجرة !

ولم يسع تيبالدو بعد سماع هذه الكلمات العذبة إلا أن يغمض عينيه ويسلم وجهه ليد افتاة وهى تربته فى ترفق وحنان !

هناك فى ضواحي فيرونا ، كان يقوم قصر شاهق حصين ، تمتد حوله حقول واسعة وغابات تتخللها البساتين . وقد آل ذلك القصر وما حوله الى النبيل اتسيد ياولو كانتازيللى ، ذى الوجه البارز العظام ، واللحية الطويلة التى تتخللها شعرات بيضاء .

وفى كل اسبوع ، كان السيد كانتازيللى يذهب الى فيرونا مرتين ليزور السيدة لوكريشيا الغانية المشهورة بجمالها فى المسكن الذى وهبه لها من قبل مع كثير من الملابس الثمينة وجواد لتركيه فى نزهاتها وتنقلاتها أما بقية أيام الاسبوع فلم يكن له من عمل يذكر خلالها ، اللهم الا خروجه للصيد والقنص .

وكانت السيدة لوكريشيا ، تمتاز فضلا عن جمالها الباهر وجاذبيتها القوية بميلها الشديد الى البر بالفقراء والمساكين ، وكانت جموعهم تحيط

بها كلما توجهت الى الكنيسة ، فتقف بينهم بقامتها الفارعة وتوزع عليهم جميعا اعانات مالية سخية ومع كل منها ابتسامه لطيفة أو عبارة رقيقة ، فتنتطق ألسنتهم بالثناء عليها والاشادة بفضلها وبسخائها الذي صسار مضرب الأمثال ، وأعلى من مكانتها بين عامة أهل فيرونا وضواحيها ، ولا سيما أنها كانت تحرص بجانب تلك الاعانات الفردية على أغداق العطايا والهدايا والهبات من حين الى حين على الكنائس والأدياره وغيرها من مؤسسات العبادة .

وقد سمع روميو مونتيكي بذلك كله ، وشهد بعضه بنفسه ، كما أنه شهد لوكريشيا نفسها غير مرة فى الكنيسة تستمع مثله للقُداس ، فكان جمالها يلفت نظره كما يلفت أنظار الآخرين . وكان يعجب على الاخص بشبابها الناضر دائما ووجها الذى لا يفارقه الابتسام ، ويديها الرشيقتين الدقيقتين ، برغم ميل جسمها الى الاكتناز !

على أنه لم يكن يعلم شيئا عن احترافها الاتجار بجمالها ، الى أن صادفها فى الكنيسة يوما ، وكان صديقه مركوتشيو معه حينذاك فسأله :

— من تكون هذه الاميرة الشابة التى يبهى جمالها الابصار ؟

فنظر اليه مركوتشيو متعجبا وقال :

— آية أميرة تعنى يا عزيزى ؟ .. انها لوكريشيا الغانية التى تتجر بجسدها !

فنظر روميو الى مركوتشيو شزرا وقال له محتدا :

— ماذا تقول ؟ .. كيف تسمح لنفسك بتوجيه اتهام شنيع كهذا الى سيدة نبيلة جميلة محسنة ؟!

وابتسم صديقه ساخرا ، ثم أردف قائلا :

— هذه هى الحقيقة يا صديقى ! . فهذه السيدة الجميلة المحسنة ليست متزوجة ، وهى فى الوقت نفسه ليست طاهرة ! .

ثم أخذ يروى له كثيرا مما يعرفه الناس من سيرة حياتها ، وأسماء النبلاء الذين وقعوا فى غرامها وفى مقدمتهم السيد كانتاريللى

وبقى روميو بعند ذلك متجهما طول يومه ، وتزاحمت فى مخيلته أفكار شتى وصور عجيبة تدور كلها حول حياة تلك الغانية الجميلة . وشعر فى قرارة نفسه بكراهية شديدة لذلك النبيل العجوز الذى علم من مركوتشيو أنه يستأثر بها دون أن تكون زوجته . ومضى فى تصوراته وخيالاته هذه مشغولا بها عن كل ما حوله . وتخيل نفسه خلال ذلك غير مرة وهو يقتحم وسيفه فى يده قصر ذلك النبيل العجوز البغيض ، أو الدار التى جعلها فى فيرونا مسكنا لتلك المرأة الجميلة المسكينة ليزورها فيها مرتين فى الاسبوع . . وكان الشاب الطيب انقلب يتنفس الصعداء ويشعر بغير قليل من الارتياح اذ يصور له خياله انه استطاع انقاذ

الغانية من تلك الحياة المهيئة التي تحياها مضطرة فيما يعتقد مع ذلك
التنبيل !

كان السيد كانتاريللي قد رأى جوليت غير مرة فسحره جمالها
وشبابها الناضر ، وأخذت نفسه تحدثه بأن يجعل منها زوجة له ، ثم رأى
من الحكمة أن يسارع الى الاعراب عن رغبته هذه مخافة أن يسببه أحد
الى طلب يدنها ، فكلف أحد أصدقائه أن يزور السيدة كابلليتتي ويفاتحها
فى الامر !

وما كادت السيدة كابلليتتي تقف على فحوى ائرساله التي أبلغها
اليها ذلك الصديق حتى تجهم وجهها وصاحت به قائلة :

— ماذا تقول ؟! .. ابنتى جوليت يتزوجها رجل تخطى الاربعين ؟
أهذا معقول ؟

وعبثا حاول رسول السيد كانتاريللي أن يقنع السيدة كابلليتتي بأن
ابنتها ستكون سعيدة بهذا الزواج ، وقالت له أخيرا :

— ان جوليت ما زالت صغيرة ، وليس ثمة أى داع الى التفكير فى
زواجها !

على أن هذا الرد الذى خيب آمال السيد كانتاريللي ، ثم يكن ليطفىء
جذوة رغبته المتقدة فى الاقتران بجوليت ، بل زاد هذه الرغبة اشتعالا
فأصبح منذ ذلك الحين ولا هم له الا فى التفكير فى أمر ذلك الزواج ،
واستنباط مختلف الحيل لاتمامه !

وحدثته نفسه بأن يكلف بعض أعوانه ، أن يختطفوا الفتاة اختطافا ؛
ثم يهربوا بها فى الظلام بعيدا من فيرونا .. الى أحد قصوره فى البندقية
مثلا ، أو الى مكان يعينه لهم فى ميلانو

وظفق يدرس هذا المشروع ويقلبه فى مخيلته . وقضى فى ذلك أياما
عديدة ، ولم يعد يزور لوركريشيا الا لماما ، كما شغل عن رحلات الصيد
والقنص ؛ وصار يقضى أكثر وقته مستغرقا فى التفكير .

وفى أثناء ذلك كان روميو هو الآخر مازال ماضيا فى تصورات
وخيالاته وتدبير مشروعاته لانقاذ السيدة لوكريشيا من بؤرة الرذيلة التي
تردت فيها !

ولم يكن يخالجه أى شك فى أن الغانية الجميلة المحسنة لا رغبة لها
فى تلك الحياة ، وانما اضطرت اليها اضطرارا ، ولهذا لن تتوانى لحظة
عن الانقياد لرغبته فى انقاذها من تلك الحياة ، بل لا يمكن أن تنسى له
بعدئذ ذلك الجميل

ورسم روميو خطة الانقاذ ، ثم شرع فى تنفيذها فتنكر فى زى
خادم ، وأخذ يطوف حول مسكن الغانية فى فيرونا ، ويختلط بخمها

مستزيذا من أخبارها ، سائلا عن المواعيد التي يزورها فيها النبسيل العجوز ، وعن شعورها نحوه . وهل تبدو سعيدة بعشرته غير المشروعة ، أم يساورها القلق والكآبة وتعذب أحيانا عن تبرمها بحياتها معه ورغبتها في أن تستعوض عنها بحياة أسمى وأظهر مع زوج شرعى شاب ظريف ؟

وحينما توجه السيد كانتاريللى الى مسكن لوكريشيا لأول مرة بعد ذلك ، أسرت اليه خادماتها حديث ذلك الخادم ، والاسئلة العجيبة الكثيرة التي جاء يطلب الإجابة عنها ، ثم قالت له :

— ان مجيء هذا الخادم الفضولى ولا شك يخفى وراءه أمرا ، وأكبر الظن أنه لم يكن الا رسولا من سيد شاب مغرور سولت له نفسه أن يستأثر دون سيدي بجمال غانيته . ولهذا يجب أن تضاعف الحراسة على المسكن . كما يجب أن تكون هناك رقابة داخلية دقيقة !

وفهم السيد كانتاريللى ما أشارت اليه الخادمة المخلصة له . والواقع أنه كان منذ تعلق قلبه بحب جوليت ورجب في الزواج بها ، قد فكر في قطع كل علاقة له بلوكريشيا غير عابى بما يكون لذلك من أثر في نفسها ، أما أن تكون هي البادئة بهجره والتنكر له بعد حبه لها وإكرامه إياها وثقته فيها ، فذلك آخر ما كان يخطر بباله . ولا يمكن أن يسكت عليه بآية حال .

وهكذا ناز غضب السيد كانتاريللى ، وتملكته الغيرة الشديدة على الغانية التي جعل منها خليلته المختارة . وكان أن منح الخادمة التي أفضت اليه بذلك السر مكافأة سخية وأوصاها بالتزام الكتمان التام . بدلا من أن يغادر مسكن لوكريشيا بعد ساعات ، أو صباح اليوم التالى على أكثر ما كان يقدر ، بقى مقيما به دون أن يغادره قط ثلاثة أسابيع !

وفى غمرة انشغاله بأمر لوكريشيا ومراقبة حركاتها وسكناتها ، ومراقبة مداخل المسكن ومخارجه خشية أن يختطفها أحد ، نسي أو كاد ينسى ما كان يفكر فيه من أمر الزواج بجوليت ، أو اختطافها وإرسالها الى البندقية أو ميلانو !



وفى شهر يناير سنة ١٣٠٢ وقع حادث كان له فى نفس روميواثر كبير ؛ ولم ينسه بعد ذلك طول حياته .

كان برتولوميو ديللاسكالا حاكما طيبا حلما لا يحب المخاصمات والمنازعات ، ويعطف كل العطف على الأدباء والفنانين . ومن هنا ما كاد يلجأ الى فيرونا « دانتي اليجيرى » الشاعر الايطالى المشهور بعد أن حكم عليه بالنفى أنصار البابا فى فلورنسا ، حتى أكرم وفادته وأحسن ضيافته . وكان دانتي قد قام بدور سياسى كبير منضويا تحت لواء الحزب البابوى . فلما انشق على الحزب فريق أعضائه السود ، نفوه فيمن نفوهم من الأعضاء البيض .

وقد تحدث الشاعر فى كتابه « الفردوس » عما لقي من لطف وكرم

من « ذلك اللومباردى العظيم الذى كان على رأس السلم فى شعاره صورة
العصفور المقدس » . وكان يعنى برتولوميو ديلا سكالا وشعار أسرته
المرسوم على هيئة سلم من الفضة فوق قطعة من المخمل الأزرق ، وفى
أعلاه صورة نسر الامبراطورية المقدسة يسطر جناحيه

وكان دانتى يومئذ فى السابعة والثلاثين من عمره ، اذ ولد فى
فلورنسا سنة ١٢٦٥ . ولم يؤلف بعد كتابه « الكوميديا الالهية » .
لكنه كان معروفا بأناشيده وقصائده وانغماسه فى السياسة المتطرفة
لحزب « الجيبيلين » وقد شغل قبل ذلك ببضعة أشهر حملة قلمية شديدة
على ملك فرنسا ، وعلى شقيقه فيليب الذى دخل فلورنسا بدعوى إعادة
الامن والنظام الى ربوعها ، ثم ما لبث أن فتك بأهلها وحرق دورها
ومزارعها !

وكان دانتى ذا أنف مقوَج وعينين غارقتين فى محجريهما ، وذقن
بارزة ووجه تبدو عليه القوة والتفكير والمهابة . فكان أهل فيرونا اذ يرونه
فى ثوبه الأحمر وهو يسير تحت أروقتها فى تودة ووقار ، يشيرون
اليه ويتهايمسون قائلين :

— انه لشاعر عظيم ، ولقد ظلمه أولئك الاوغاد الذين اتهموه
بانخيانة الوطنية وحكموا عليه بأن يحرق حيا ، بعد أن يدفع غرامة
فادحة !

وأيا ما كان الامر ، فقد أفاد برتولوميو ديلا سكالا حاكم فيرونا فائدة
كبيرة من احتضانه دانتى ، اذ أخذ هذا يقرأ له المؤلفات ؛ ويدبج
الخطب ، ويحرر الرسائل الموجهة الى العظماء والكبراء ، الى غير ذلك من
الخدمات الجليلة

ولم يكن روميو مونتيكى يعلم الا الشئ القليل عن الاسباب التى
دعت برتولوميو الى الاحتفال بهذا الشاعر العظيم فى قصره . على أنه كان
اذا لقى دانتى فى الطريق ، لا يسعه الا أن يقف متأملا اياه فى اعجاب ؛
ويشعر شعورا قويا بأن فى هيئة هذا السيد الغريب ؛ ولا سيما نظراته
القوية النفاذة ما يؤكد أنه رجل عظيم .

روميو يقع في الغرام

كانت السيدة « روزالندا » امرأة بارعة الجمال شديدة الجاذبية ، ذات جبين بارز ، وعينين واسعتين في أهدابهما طول ملحوظ ، وأنف رقيق منسجم مع فمها الرقيق . وقد أوتيت إلى ذلك جسما من أجمل الأجسام وأكملها وأحفلها بالمفاتن مما يعجز عن وصفه الواصفون .

وكان جميع أهل الغنى واليسار في فيرونا يعرفونها ، لأنها كثيرا ما كانت تستقبلهم في مسكنها الفخم الذي تقيم به ، وقل بين أهل المدينة شبابا وكهولا من لم يكن يتغنى بجمالها ويحلم بالوصول إليه

وكان روميو مونتيكي في عداد من سحرهم جمال روزالندا ، فصار دائم القلق والتكآبة إلى حد أقلق عليه صديقه مركوتشيو ، فأخذ يقول له ساخرا :

— ما هذا الذي أصابك أيها الصديق ؟ • هل تسطو عليك في الليل ساحرة تمتص دمك ، فإذا أقبل النهار ظهرت آثار ذلك في جسمك ؟

وكان روميو يدفعه في عنف بنراعه ويقول له :

— ماذا تهلك الأفكار التي تتردد في ذهني ؟ • ألسنت حرا في أن أفكر كيفما أشاء •• انك لتهينني بهذا أهانة لا أقبلها !

وهنا يسارع مركوتشيو إلى الاعتذار إلى روميو مؤكدا له أنه لم يقصد مطلقا أن يهينه ، ثم يستطرد فيقول :

— ليس هناك ما يدعو إلى الانغماس في الحزن والتكآبة ، ولا سيما أننا مازلنا في مستهل الشباب ولم نجاوز العشرين بعد •• هلم نذهب إلى إحدى الحانات لنشرب شيئا من الخمر ، وبذلك نذهب همومك ويصفو بالك

ولكن روميو كان يهز كتفيه ويقول : « لست أشعر بعطش ! » • ثم يمضي في اطراقه وتفكيره الحزين !

وقال له مركوتشيو يوما وقد لاحظ عليه شدة ما يعانيه من قلق خفي :

— ان وراء كآبتك الشديدة الدائمة هذه لسرا تخفيه • ومن الخير لك أن تطلعني على هذا السر ، أم أنت لا تثق في اخلاصي ومحبتى لك ؟ !

ثم أخذ مركوتشيو يكرر هذا السؤال على مستامع روميو ، كلما

رآه فى مثل تلك الحال • وأخيرا اعترف له روميو بعد طول تردد وتفكير
بالسر الذى يقلقه ويحزنه الى ذلك الحد ، فقال له :

— انى أحب روزالندا •

وفغر مركوتشيو فاه دهشة ، ثم سأله :

— من تكون روزالندا هذه •• أتعنى تلك الغانية اللعوب التى
تستقبل الناس فى مسكنها ؟ •• انك لست فقيرا يا صديقى ، وفى
استطاعتك ولا شك أن تحصل على أكثر من المال القليل الذى يفتح لك
باب قلب هذه الغانية على مصراعيه !

وهنا ثار غضب روميو حتى ظن مركوتشيو أنه يوشك أن ينقض
عليه ليدق عنقه • على أنه ما لبث أن هدا قليلا وقال له :

— انك لكاذب ! •• ولن أسمح لك قط بأن تصور جمالها بهذه
الصورة المزرية !

فقال مركوتشيو فى هدوء :

— لست أظعن فى جمال روزالندا ، ولكنى أرجو أن تفكر قليلا
فى الأمر • أن روزالندا جميلة ما فى ذلك شك ، ولا شك أيضا فى أنها
تعيش عيشة مترفة وتنفق ببذخ واسراف • فهل لك أن تخبرنى من أين
تأتى بالمال الكثير الذى تنفقه ، فى حين أنها ليست زوجة لرجل غنى ،
كما أنها ليست سليلة أسرة غنية ؛ وأبوها كما يعلم الجميع ليس أكثر من
ملاح بسيط يعيش من زورق له فى نهر أديجى

ولم يجب روميو ، وبقي ينظر الى صديقه ساهما ذاهلا ، فعاد
هذا يقول :

— أرايت اذن يا صديقى أية علاقه بين جمال روزالندا ، وبين من يترددون
الى مسكنها الفخم لزيارتها أفرادا وجماعات ؟ •• هل تحب أن أذكر لك
أسماءهم ؟ !

وبقي روميو صامتا واجما ، لانه لم يجد ردا يستطيع به أن ينقض
ما فى أقوال مركوتشيو من حقائق قاسية مريرة •
ثم واصل مركوتشيو كلامه فقال :

— ان لم تكن قد اقتنعت ، فأنا على استعداد لأن أدخلك مسكنها ،
لأنى أعرف واحدا ممن يكثرون التردد اليه • وسترى حينئذ بعينيك ان
قليلا من المال كفىل بأن يفتح لصاحبه ذلك المسكن الذى تعتقد أنه مقدس

وتردد روميو أول الأمر ، ثم قبل واتفق مع مركوتشيو على
موعد يزوران فيه مسكن روزالندا • ثم انجز مركوتشيو وعده ، ولم تمض
أيام حتى صار روميو فى عداد زمرة النبلاء الفيرونيين الذين يجتمعون
عند روزالندا كل مساء ويحتسون من كئوس الأنس والصفاء •

وكان الحياء يلجم لسانه فى بادىء الأمر • ثم بدأ يتخلص من ذلك

شيئا فشيئا على مر الأيام . وكان له من مركز أسرته ، ونضرة شبابه ، وملاحة وجهه وخفة روجه ما مكن له في ذلك المجلس وجعل له الصدارة بين من ينتظمهم من نبلاء وأدباء وقنانين !

وتعودت روزالندا أن تدعوه الى حفلاتها ، فكان أحيانا يلبي الدعوة مسرعا بادی الغبطة والابتهاج ، وكان أحيانا يتمنع متظاهرا بعدم الاكتراث لكي تزداد تحببا اليه !

ولم تكن روزالندا تجهل مدى افتنانه بها ، ومن هنا كانت تعمده الى اثارته بمداعبات تكاد تكون وعسودا . فاذا اشتعلت ثورة عواطفه وحاول أن يدير دفة الحديث الى المصارحة والمكاشفة ، سارعت الى قطع حديثه وقالت له في جد وهديء :

— الى هنا يحسن الوقوف أيها السيد النبيل !

وكان روميو ينكمش مطيعا ، ويعتبر تصرفها ذاك برهانا على طهارة روحها ونبل قلبها ، فيزداد اجلالا واكبارا لها .

وكانت هي تزدهى كثيرا بأن ينظر اليها روميو هذه النظرة !

والواقع أن أكبر ما كان يدفع روزالندا الى ذلك أنها كانت تخشى أن تغضب القدماء من المعجبين بجمالها وفتنتها ان هي ذهبت في الاستجابة لرغبات روميو الى أكثر من هذا الحد . فتفقد بذلك موردا لا يعوض !

وكان روميو أحيانا لا يستطيع أن يكتف عن صديقه مركوتشيو سخطه على روزالندا واحتقاره غرامها بالأشياء المادية ، وميلها الى الإبهام والغموض حيناً ، وإلى إبراز عواطفها حيناً آخر ، ثم يردف ذلك قائلاً :

— مارأيك يا مركوتشيو ؟ ألا يحق لي إذن أن أعجل بانقاذها من ذلك الجو الخانق الذي يضطرها الى ذلك ؟ . انها ولا شك ستكون أجمل كثيرا حين تحب حبا طاهرا شريفا تعطيه كل قلبها !

وهنا كان مركوتشيو يضحك ويقول له :

— انك تضيع وقتك سدى !

ولكن روميو لم يكن يقتنع بهذا ، فيقول لمركوتشيو :

— كيف ؟ . . . أى قيمة للوقت بجانب أن ينقذ المرء نفسه ؟

باين روميو وتيبالدو

وتوجه روميو الى كنيسة سان زانون ، ليحضر القداس فيها كعادته وللإشتراك في الاحتفال الديني الذي يقام بعد ذلك

وكان أحد أبناء الامبراطور شارلمان ، قد أمر بإنشاء هذه الكنيسة، ولكن بناءها لم يتم الا منذ خمسين عاما . وقد امتازت بكثرة التماثيل التي حفرها بعض المثاليين الاتقياء على جدرانها المحجوبة . ولا يزال فيها حتى الآن تمثال السيد المسيح ، وصورة تمثّل محكمة بيلاطوس النبطي يبدو فيها القضاة والجلادون رموسهم غليظة وعيونهم بارزة مثل الضفادع، وفي الكنيسة كذلك صور الملائكة تبسط أجنحتها ، وصور بديعة تبرز قدرة الخالق وعظمته أو تمثّل وحشية اعدام المسيح . وكثير من أجنحة الملائكة في تلك الصور ، أقرب شبهها الى أجنحة الخفافيش . ولكن ذلك لا يرجع الى قلة إيمان الفنانين الذين قاموا بتلك الأعمال ، بل هو يرجع الى قصور هؤلاء في الفن

وبعد أن انتهى روميو من الصلاة غادر الكنيسة مع بقية من كانوا فيها من المصلين . وذهب الجميع لحضور احتفال ديني علني كان رجال الدين قد قرروا أن يقيموه في مساء ذلك اليوم .

وسار المصلون يحملون المصابيح والمشاعل والشموع في شوارع فيرونا المظلمة التي لم يكن نور النهار يصل اليها الا من بين سقوف المنازل المتلاصقة . وكان رجال الدين يحملون صلبانا ومباخر وتماثيل من الخشب وأعلاما وصناديق آثار القديسين . وكانت أصوات مرتلي الأناشيد الدينية تختلط بأصوات المغنين ، وكانت جماعة من رجال الدين من أعمار ومذاهب مختلفة تحيط بالصور المقدسة المحمولة بالأيدي ، بينما حملة المباخر يمشون خلفها وهم يهزون مباخرهم ليتصاعد منها البخور

ووضع القوم على عربة طفلا عمره خمس سنوات ، ليُمثّل القديس يوحنا . وكان الطفل جميلا أشقر الشعر مجعده ، له عينان كبيرتان سوداوان . فكانت الابتسامات وعبارات الإعجاب تنهال عليه من الجميع ولا سيما السيدات . وكان بعض الحاضرين والحاضرات لا يكتفون بذلك ويرسلون اليه قبلات في الهواء !

ولما مرت العربة بالقرب من روميو ، وكان الزحام شديدا ، زلت قدمه واضطر الى أن يستند الى كتف شاب كان الى جواره حينذاك ، فصاح به هذا قائلا :

— ماذا دهاك يا فتى ؟ ألم يبق لساقيك قوة لحملك ؟
وابتسم روميو وأجابه قائلا :



بين روميو و تيبالدو

- لقد زلت قدمي فلم أستطع الا أن أستند على كتفك ، فاذا كانت هذه الحركة الطفيفة لم تتحملها كتفك فأنت أشد حاجة الى التقوية ولا شك !

وهنا ثار ذلك الشاب وقال لروميو :

- انتظر قليلا ، ولسوف أسمرك على الباب حتى لا تزعج أحدا من جيرائك بعد ذلك !

وكان صبر روميو قد نفذ ، ولم يطق السكوت على هذه الاهانة فقال للشباب :

- اذا لم تكن نذلا فاقترِب مني لأريك اني لو تعمّدت أن أوقعك لاستطعت هذا بدفعة أعنف وأشد !

فهاج الشاب واستل خنجره ، وكذلك فعل روميو ، ولكن الذين كانوا حولهما سارعوا الى ابعاد كل منهما عن الآخر ، وحملوهما على أغمار خنجريهما ثم استطاع الشابان أن يتلاكما بالأيدي ، فسال السدم من شفاهما ، واحمرت عيونهما من شدة الضرب . وصاح أحد الحاضرين :

- أين رجال الحرس ، ان احدهما سيقتل الآخر ان استمرا في هذه الملاكمة !

وفى تلك اللحظة جاء رجال الحرس وفرقوا الشابين برماحهم ، ثم مد قائد الحرس رمحہ بينهما ، وأمرهما بأن يكفيا عن العراك ثم قال لهما بعد هنيهة :

- يجب أن أعرف اسم كل منكما لعرض الامر على القاضي .

فقال روميو في زهو وهو يمسح بكمه الممزق أنفه وفمه :

- اسمي روميو مونتيكي

فلما سمع اسمه رئيس الحرس أسف كل الأسف لتدخله وتمنى أن لو بقى في المعسكر دون أن يعرض نفسه لهذا الموقف المخرج !

ثم التفت الى الشاب الآخر وسأله :

- وأنت ما اسمك أيها الفتى الشقي ؟

فأجاب الشاب في مثل زهو روميو وفخاره :

- اسمي تيبالدو . وأنا من آل كابليتي !

ثم عاوده الغضب والاهتياج كأن اسم مونتيكي نفخ فيه نارا ! وعرف روميو في تلك اللحظة فقط ذلك الشاب ، وتذكر أنه شاهده جالسا الى جانب زعيم آل كابليتي يوم حاول السيد ديلا سكالاً أن يصلح بين الاسرتين الشريفتين .

وعندئذ حضرت لحسن الحظ فصيلة أخرى من الشرطة ففسال

الرئيس :

- اصحبوا انتم هذا النبيل كابليتي حتى قصره بكل احترام .

وأنا وهؤلاء نذهب مع السيد مونتيكي الى داره لنمنع عنه الأذى !

وذهب كل فريق من رجال الشرطة في طريق وهم يحرسون المذنبين

اللذين أصبحا في حماية الشرطة منذ اتضح انهما من الاشراف !

الفصل الرابع

مولانا غلام

بقصة وأغنية

وقف أحد الخدم حائرا في ساحة السوق العامة بمدينة فيرونا ، وكانت في يده ورقة طويلة بها كتابة يثفرس فيها ويقلب الورقة ظهرا لبطن ثم يعيدها كما كانت ، ويهز رأسه وكتفيه ويمط شفتيه في حركات مضحكة تدل على دهشته البالغة وقلقه الشديد

ومر روميو في تلك اللحظة بساحة السوق ومعه صديقه مركوتشيو فاسترعى انتباههما منظر ذلك الخادم ، ووقفا قريبا منه يتأملان حركاته ويتهاوسان ويتسمان

واقترب مركوتشيو من الخادم الحائر وسأله :

— ما الذى يقلبك ويحيرك ، هل فقدت شيئا هنا ؟

فتنهده الخادم ، ونظر اليه قائلا :

— لم أفقد شيئا بعد ، ولكن أكاد أفقد عقلي بسبب الاسماء المكتوبة فى هذه الورقة ، اذ أننى فقير لم أتعلم القراءة والكتابة ، ومع هذا يجب أن أعرف كل اسم من هذه الاسماء المكتوبة لكى أدعو صاحبها الى الحفلة التى يقيمها سيدى عميد آل كابلليتى

وما سمع روميو اسم كابلليتى حتى اختفى البشر والمرح من وجهه فجأة ، وحل محلها التبرم والضيق ، ثم قال لمركوتشيو :

— هلم نذهب يعيدا من هنا ، فلست أطيق الوقوف لحظة بعد الآن !

وأسرع مركوتشيو فى قراءة الاسماء المكتوبة فى الورقة على الخادم ، ثم ردها اليه ، فتناولها الخادم وهم بالانصراف قائلا :

— شكرا لك ياسيدى ، ان معرفة هذه العلامات المكتوبة مهمة صعبة ، ولكن ذاكرتى قوية وقد حفظت الاسماء التى تلوتها على كلها ، وسأقوم بمهمتى خير قيام . وهذا كله بفضلك ، جزاك الله عنى خيرا

واستأنف الشابان سيرهما بعد ان انصرف الخادم ، وبقي هنيهة صامتين ، ثم مط روميو شفته السفلى دلالة على اشمئزازه وقال :

— السيد كابلليتى يقيم حفلة ؟ لماذا يا ترى ؟

وأخذ مركوتشيو يبنسط لروميو ما وصل الى علمه عن الاستعدادات التى كانت قائمة على قدم ومساق لاقامة تلك الحفلة ، وأفاض فى الحديث عما ينتظر ان تتضمنه من غناء ورقص وطعام وشراب وألعاب

مسلية مختلفة ، ثم توقف عن السير وقال لروميوس :

- لا شك أنها ستكون حفلة لطيفة ، وشهد ما كان يسرني ألا يفوتك الاستمتاع بما فيها ، ولكنك طبعاً لا يمكن أن ترضى أن تكون بين حاضريها .

وهنا سأل روميوس صديقه :

- وماذا يمنعني من أن أكون بينهم ؟

فحدثه مركوتشيوس بنظرة من مؤخرة عينه وقال له :

- يمنعك من ذلك أنك من آل مونتيكي ، وأنت لهذا لا يمكن أن تدخل قصر آل كابلليتي إلا شاهراً سيفك لقتال !

فأطرق روميوس ، وبقي حيناً صامتاً يعث بطرف بنانه بين أسنانه ثم رفع رأسه فجأة وقال لمركوتشيوس :

- أليس السيد مرتولوميوس ديلا سكالاً حاكم المدينة بين المدعوين ؟

فأوماً مركوتشيوس برأسه موافقاً وقال :

- نعم ، وقد قرأت اسمه في رأس القائمة التي كانت مع الخادم فقال روميوس : « إذن لن يمكن في حضوره أن يحاول أحد استعمال القوة أثناء تلك الحفلة ؟ »

ثم مضى يشرح له فكرة خطرت بباله ، هي أن يذهب متنكراً إلى قصر السيد كابلليتي يوم الحفلة وبذلك يتاح له أن يشهدها ويستمتع بكل ما تحويه دون أن يعلم بذلك أحد من آل كابلليتي أو آل مونتيكي .

ولم يوافق مركوتشيوس على هذه الفكرة ، وأخذ يبين لروميوس ما في تنفيذها من مغامرة محفوفة بالأخطار . ولكن تحذيره هذا لم يزد روميوس إلا استمساكاً بتنفيذ فكرته . ولما افترقا بعد حين . كان روميوس قد وطد عزمه على حضور حفلة السيد كابلليتي ، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون

أقيمت حفلة السيد كابلليتي في شهر يوليو سنة ١٣٠٣ ، وقد بلغت حرارة الجو أشدها في تلك الليلة ، وزاد في شدة الحرارة ازدحام القصر بالمدعوين والمبعوثات ، وبأفراد فرق الموسيقى والغناء والشعراء والمحدثين والبهلوانات والحواة ومن اليهم ممن استقدموا إليها للتسلية والترفيه . وهذا عدا عشرات الخدم والطهاة والحراس ، وعدا الحرارة المنبعثة من عديد المشاعل والشموع ، ومن المطابخ والأفران

ولم تكن بدانة السيدة كابلليتي أشد ما يضايقها في تلك الليلة ، فقد كان عليها أن ترتدى ثياباً من المخمل المزركش الثقيل ! . وكان عليها فوق ذلك أن تتجاهل ما يتصنّب من عرقها مدياراً لكي تمضي ساعات قبل موعد الحفلة في الطواف بأنحاء القصر ومطابخه للأشراف على أععداد الموائد والأوان الطعام والشراب وترتيب مقاعد المدعوين

والمدعوات وتنظيم حلبة الرقص . دون ان تنقطع لحظة واحدة طول هذه
انساعات عن اصدار التعليمات وابداء الملاحظات والتوجيهات !

وقد بذلت جولييت كل ما فى وسعها لمعاونة أمها على أداء هذه
المهام التجسام ، ولكنها كان لها من شبابها ورشاقتها ومرحها
وتسامحها مع الخدم ما هون عليها الأمر الى حد كبير .

أما السيد كابلليتي ، فقد حصر مهمته فى اصدار التعليمات لنافخى
الابواق والحراس وحاملى السلاح ، وفى الاشراف على اعداد المقاعد
الوثيرة الممتازة للسيد برتوتوميو ديلا سكال حاكم المدينة وبقية النبلاء
والنبيلات !

وما آذنت شمس ذلك اليوم بالغروب حتى كان كل شىء قد أعد
على مايرام لاستقبال المدعوين والمدعوات . وبدءوا يفدون زرافات
ووحدا ، وقد ارتدى النبلاء أثمن الثياب وأثقلها ، وزاد فى ثقل ثياب
النبيلات ما تحلين به من مختلف أنواع الجواهر واللاتى والمصوغات !

وبالغ أهل القصر فى حسن استقبال ضيوفهم والترحيب بهم ، وكان
بينهم كثيرون وكثيرات جاءوا الى الحفلة متنكرين طبقا للتقاليد الإيطالية
فى ذلك العصر . ولم يمض الا قليل حتى تكامل عددهم ، واستقروا
فى مقاعدهم ، فأخذ الخدم يطوفون عليهم بإكواب الخمر ، وأخذوا
هم يشربون ويتسامرون ويتبادلون الأحاديث والنوادر والفكاهات ،
وفى خلال ذلك يلتهمون ما حفلت به الموائد من ألوان الطعام !

وعزفت الموسيقى بعد ساعة ايذانا بحلول موعد الرقص ، فانتقل
الضيوف الى القاعة الكبرى المخصصة لذلك ، وجلسوا صفوفًا على المقاعد
الوثيرة التى أعدت هناك على هيئة دائرة أخل وسطها مكان فسيح للراقصين
والراقصات .

ثم بدأ الرقص على نغمات الموسيقى ، وكان كل اثنين يرقصان
معا ، وكلهم يدورون داخل تلك الدائرة ، بينما الجالسون يرقبونهم فرحين
مغتبطين .

وهناك خلف أحد الأعمدة الضخمة التى أقيمت عليها جوانب القاعة ،
قبع اثنان من المدعوين وأخذتا يتهاوسان من حين الى حين وهما يرقبان
الرقص . وكان أحدهما متنكرا فى زى سيده ، وقد بدا انه ضاق ذرعا
بشدة الحر ، وبالقناع الثقيل الذى يغطى رأسه ووجهه ولا يبين منه الا
عيناه . ثم همس فى أذن زميله قائلا :

— أشعر بأننى سأختنق من شدة الحر !

ثم مد يده الى قناعه الثقيل فأزاحه عن وجهه قليلا ، ولكن زميله
سارع الى منعه من ذلك قائلا :

— حذار ياروميو ! .. اياك ان تكشف عن وجهك ، والا ألقيت
بنفسك الى التهلكة بهذه الحماسة الشنيعة !

ولكن روميو ، لم يعبا بتحذير صديقه مركوتشيو ، وسرعان ما كشف عن وجهه ذلك القناع الذى كان يخفيه ، ثم تنهد وقال :

— قلت لك ان شدة الحر كادت تزهرق روحي !
وعض مركوتشيو شفثيه غيظا وحنقا ، ثم تلفت حواليه ، وقال له :
— يجب أن تغادر هذا المكان فورا . . انهم سيعرفون وجهك ولا شك ، وأنت تعرف مالا بد أن يترتب على ذلك !

ولم يزد روميو على أن ابتسم وهز كتفيه ساخرا فى عناد : ثم راح يتابع بنظراته الراقصين والراقصات ووجهه يفيض بدلائل عدم الاكتراث بل يفيض بالارتياح والسرور !

ولم يلحظ الرجال وجه روميو أول الأمر ، ولكن النساء سرعان ما اتجهت اليه أنظارهن

وكان بين الرقصات التى جرت فى الحلقة بعد ذلك رقصة ريفية تقليدية تنتهى عادة بأن يحيط بعض المشتركين والمشاركات فيها بأحد الجالسين ثم يجروه الى الترقص معهم ويرغموه على ذلك ارغاما ان لم يستجب لهم . فانتهزت إحدى السيدات الراقصات هذه الفرصة وانقضت على روميو فى مجلسه وراحت تجذب ثوبه داعية اياه الى مراقبتها . فراح هو يحاول أن يفلت من يدها ، وبذل مركوتشيو كل ما استطاع من جهد وحيلة لمعاونته على التخلص من هذا المازق الذى أوقع نفسه فيه . ولكن السيدة تشبثت بأطراف ثوبه ، ولم تتركه الا بعد جهد جهيد سقط خلاله قناعه عن رأسه كما سقط الثوب النسائي الذى تنكر فيه عن كتفه وصدره فظهر تحته ثوبه الحقيقى .

ولم يشك هو ولا مركوتشيو فى أن أمرهما قد انكشف . على أن سحب الدخان الكثيف المنبعث من المشاعل الموقدة ، وانشغال أكثر الرجال الحاضرين بمتابعة الرقص والموسيقى ، فضلا عن افراطهم جميعا فى الشراب . كل ذلك كان مما سهل لزوميو وصاحبه الافلات من يد الراقصة المسكة بهما ، والاختفاء بعيدا من متناولها فى زحمة الحاضرين والحاضرات .

ولما انتهت تلك الرقصة الريفية ، حانت من تيبالدو ابن عم جونيت التفاتة الى الركن الجديد الذى انزوى فيه روميو ، فعرفه بوجهه ، وأخذه الحنق والغضب لجراته ؛ فغادر مكانه فى الحلقة متجها الى حيث كان يجلس عمه السيد كابلتي ، حتى اذا بلغه بعد أن دفع كثيرا ممن كانوا فى طريقه من المدعوين والمدعووات قال له وهو يشير الى روميو عابسا مقطب الجبين :

— انظر يا عماء . . ان عدوا لودا من أعدائنا بلغت به القحمة والجرأة أن اقتحم مقرنا . ان روميو مونتيكى هنا فى هذه الحفلة . ولأمر ما جاء الى هنا . ولا بد قبل طرده من أن نلقى عليه درسا لا ينساه ليكون عبرة لسواه !

والتفت السيد كابلليتى الى الجهة التى أشار اليها تيبالدو ، ثم
انفرجت شفتاه عن ابتسامة خفيفة وأوماً بيده داعياً تيبالدو الى الهدوء
قائلاً له :

هون عليك يا عزيزى ، ان اليوم يوم فرح وبهجة لا يوم قتال
ونزال . ولعل خطأ وقع فى توجيه الدعوات الى الحفلة . وأياماً كان الامر
فليس هناك ما يدعو الى تعكير صفونا وأنسنا ، ولينزل على الرحب
والسعة كل من دخل هذا القصر وان كان من آل مونتيكى !

وكان الرقص قد استؤنفه خلال ذلك ، وظهرت على الحلقة جوليت
ممسكة يد روميو استعداداً لاشتراكهما فى الرقص ، فاشتد غيظ تيبالدو
ورفع صوته قائلاً لغمه :

— هذا لا يمكن ان يكون ، هذا عار ! .. ان روميو مونتيكى
يراقص جوليت !

فنظر السيد كابلليتى الى الحلقة هنيهة ، ثم التفت الى تيبالدو
وربت كتفه بيده داعياً اياه مرة أخرى الى الهدوء ، وقال له فى لهجة
حازمة :

— يحسن أن تملأ رئتيك من هواء الليل الطلق النقى خارج القاعة،
ان شدة الحرارة هنا تهيج الأعصاب أكثر مما ينبغي . ولا تنس اني
فى سن لا أحتاج فيها الى من يبصرنى بواجبى !

وجمد تيبالدو فى مكانه هنيهة ، وهو ينقل نظراته الحائرة
بين عمه وبين حلقة الرقص ، ثم مط شفتيه مشمئزاً مقطب الجبين ،
وغادر القاعة صامتاً ويداه معقودتان على ظهره وما لبث أن اختفى عن
الأنظار .

وقفت جوليت كابلليتى وحدها وسط حلقة الرقص لتلقى أغنية
تقليدية تسلى بها المدعوين والمدعوات على أنغام الموسيقى ، واستهلكت
أغنيتها قائلة :

— أنا وردة فى الظل وحيدى ...

وارتفعت أصوات بعض الحاضرين مرددة على أنغام الموسيقى :

— وردة ناضرة جميلة لطيفة !

فاستطردت جوليت تنشد بصوت عذب :

— لكننى مع هذا لم أعرف الحب بعد !

وهنا انبرى من بين الحاضرين فتى من أبناء آل كابلليتى ، وأخذ
مكانه وسط الحلقة أمام جوليت ، ومضى فى الأغنية نفسها منشداً :

— اذن أقطف أنا هذه الوردة ؟

ثم انطلق يرقص على أنغام الموسيقى ، وكلما اقترب من جوليت
نفرت مبتعدة منه فى رشاقة وخفة ودلال . ثم يعودان الى الالتقاء وجهاً
لوجه وسط الحلقة ، وينشدان معاً بعض مقاطع الأغنية الغرامية الراقصة

التقليدية ، بينما أصوات الآلات الموسيقية تزداد ارتفاعا ، وتمتزج بها أصوات الحاضرين وهم يرددون تلك المقاطع ويصفقون !
وكان روميو واقفا يتأمل هذا المشهد وعيناه لا تفارقان جوليت ، وتتابعانها في أغنيتهما ورقصتهما مع ذلك الفتى الذى بدأ له ثقل الظل منتفخ الوداج لا يعرف كيف يتلطف ويترفق وهو يمسك يد الفتاة الجميلة اللطيفة المرححة بيده الغليظة .

ثم انتهت الأغنية ، وامتلات الحلبة مرة أخرى بالراقصين والراقصات ، فأخذ روميو يدور معهم فيها ، لكنه لم يكن معنيا باظهار اجادته للرقص ، اذ كانت عنايته كلها موجهة الى متابعة جوليت تلك الفتاة الظريفة التى بهرته ملايسها الزاهية البراقة ، ويداهما النحيفتان وساقاهما الدقيقتان ، وقدهما المعتدل الرشيق ، ووجهها المشرق بارق الابتسامات وعذب النظرات .

وحدث غير مرة ان مرت بقربه فى دورانها خلال الرقص ، فكانت تثريث عنده قليلا وتنظر اليه مبتسمة فتحدثه نفسه بأن يمسك يدها ولا يدعها ترقص مع غيره ، لكنه كان فى تلك اللحظة ينسى كل شئ الا التحديق فى وجهها الى أن تبتعد ، فيبقى مكانه حائرا قلقل حتى تعود .

وفى نهاية هذه الرقصة ، بدأ الراقصون والراقصات يعودون الى مجالسهم حول الحلقة تاركين جوليت لتتشدد أغنية الختام . ولم يظن روميو الى ذلك ، فبقى وحده معها فى الحلقة آخر الأمر ، ثم رآها تقف وسطها ناصبة قامتها كما فعلت أول مرة ، وبدأت أغنيتهما التقليدية الجديدة ، وقد ضمت يديها ورفعتهما مع رأسها الى أعلى كأنها تصلى ، وانطلق صوتها العذب الحنون يلعلع فى القاعة وهى تنشده على أنغام الموسيقى :

— أنا أسيرة فى الغاب ، أين من يستطيع نجدتى ؟

وأخذت تردد هذا المقطع مرات ، وعينا روميو لا تفارقان شفثيها ثم بدأ بعض الحاضرين يندفعون الى الحلقة ، ويدورون حول جوليت راقصين ، وكل منهم يمد اليها يده داعيا الى الرقص ؛ بينما هى تتجاهل أيديهم الممتدة ، وتمضى فى أغنيتهما :

— أنا أسيرة فى الغاب ، أين من يستطيع نجدتى ؟

ووجد روميو نفسه يندفع نحوها كأنما يجذبه إليها مغناطيس ، ثم ما كاد يمد اليها يده حتى أسلمته يدها مبتسمة ، وانطلقا يرقصان معا فى رشاقة ومرح وانسجام ؛ بينما القاعة تدوى بتصفيق الاعجاب والاستحسان من جميع الحاضرين والحاضرات .

وانحنى جوليت وأطبقت جفنيها حياء وخفرا وهى ترد تحيات المعجبين والمعجبات ؛ وحينما رفعت رأسها وفتحت عينيها بدت فى وجهها الدهشة ، اذ كان الفتى الجميل اللطيف الذى شاركها رقصتها الأخيرة قد اختفى من حلقة الرقص ، وغاب القاعة ؛ بل غادر القصر كله ، منتهزا فرصة الضجة التى ختمت بها تلك الرقصة !

حب حتى الموت

بعى مركوتشيو منتظرا على أحر من الجمر حتى انتهى روميو من الرقصة الأخيرة مع جولييت ، فلما رجع اليه هذا متسللا في ضجة التحيات التي انطلقت بها أكف الحاضرين وجناجرهم تصفيقا وهتافا ، ابتدره قائلا :

— حسنا ! .. فلنمض الآن وحسبك ما كان !

فأوما روميو موافقا ، وغادرا القاعة والقصر مسرعين . وما كادا يجتازان الباب الخارجي حتى تنفس كل منهما الصعداء ، وقال مركوتشيو :

— ما أحسن هواء الليل ! ان الجو هناك خائق حقا !

ولم يسمع روميو عبارة صديقه ، اذ كان ذهنه ما برح مشغولا الفتاة الحسنة اللطيفة ذات الثوب الأبيض ، فقال له :

— أرايتها ؟ .. من تكون يا ترى ؟ .. ألا تعرف اسمها ؟ .. ما أبدعها يا صديقي وما أروع حسننها وخفة روحها ! .. انها ولا شك ليست من أسرهم !؟

ووقف روميو على أثر ذلك واضعا يده على كتف صديقه وأخذ ينظر اليه متلهفا لسماع الجواب . فابتسم مركوتشيو وأمسك ذراع روميو وجذبه ليواصل المشى والابتعاد من القصر قائلا :

— امض أيها الخالم بالحب .. امض ! .. ان الذنب ليس ذنبك ، ولكنه ذنب روزالندا ! .. فلو أنها تعطفت عليك وساعفتك باخماد ثورة أعصابك ، ما كان هذا حالك الآن

ولم يفهم روميو شيئا من عبارة مركوتشيو هذه أيضا . وعاود سؤاله عن الفتاة ذات الثوب الأبيض !

فابتسم مركوتشيو مرة أخرى وقال له :

— عجيب منك أنك لم تعرفها ، لكنك معذور يا صديقي فان حبك لروزالندا شغلك عن كل ما عداه خلال العامين الأخيرين !

فقال له روميو :

— أنت تعرفها إذن .. ما اسمها يا صديقي ؟

فقال : « اسمها جولييت .. جولييت كابلليتتى ! »

فتوقف روميو وأمسك ذراع مركوتشيو وقال متعجبا :

– جولييت كابلليتى ؟! كيف يكون هذا ؟! أهى تلك الصبية الصغيرة التى رأيناها فى النهر تستحم وتلعب ؟!
فقال مركوتشيو :

– نعم .. انها هى نفسها تلك الصبية ، لقد بلغت الخامسة عشرة من عمرها ، واكتملت رشاققتها وحلاوتها وجاذبيتها . وهى اليوم أجمل فتيات لومبارديا على الإطلاق !

وشعر روميو بان قلبه يخفق بشدة ، ورفع عينيه الى السماء الصافية الأديم ، وبدا كأنما يتابع كواكبها المتألقة ، بينما الأصوات المنبعثة من قصر آل كابلليتى تنساب الى أذنيه ، وأضواء المشاعل العديدة حول القصر تشق حجاب الظلام وتنير معالم الطريق .

ثم تنهد وقال :

– هى اذن جولييت ؟! لكن .. أوافق أنت من ذلك يامركوتشيو؟ اننى لا أستطيع أن أصدق هذا ! .. ان العوسج لا يمكن أن ينبت وردا ! كيف تصدق أنت أن هذه الفتاة الحلوة المرحة الطريفة ابنة ذينك الجلفين الغليظين ؟!

فضحك مركوتشيو وقال :

– ان الحب يوحى اليك يا صديقى بنظريات عجيبة فى شئون الطبيعة ! .. ولكن ما قلته لك هو الحق الذى لا شك فيه . فهذه الفتاة التى سعدت بنظراتها وبسماتها وشدوها ورقصها هى جولييت ابنة السيد كابلليتى صاحب القصر الذى كنا فيه !

وبدا روميو زائغ البصر شارد اللب ، ثم التفت الى مركوتشيو فجأة وقال له :

– مركوتشيو .. هيا بنا ، لنعد الى القصر .. ان الحفلة ما زالت قائمة ، ولا بد لى من أن أعود اليها .. أحب أن أراها ثانية ؟

ثم استدار على أثر ذلك وجذب ذراع مركوتشيو ليعود معه الى القصر، ولكن هذا أمسكه بقوة وهز كتفيه قائلا :

– كلا ! .. كلا ياروميو . ما كل مرة تسلم الجرة ، وعليك أن تحمد الله على أن انتهت مغامرتك الجريئة الخطيرة بسلام . ثم لا تنس أن القوم قد بدأت نشوة السكر والغناء والرقص تزايدهم !

وحاول روميو أن يخلص ذراعه من قبضة صديقه وهو يقول :

– دعنى ! .. أريد أن أراها .. أريد أن أرى جولييت !

ولكن مركوتشيو تشبث بذراعه ، وأخذ يهمس فى أذنه قائلا :

– اذا كنت راغبا حقا فى أن تراها ، فخير لك ألا تعود الى القصر

الآن ، انك من آل مونتيكى ، وهى من آل كابلليتى . فتسلاقيكما هكذا
يستحيل أن ترضى عنه الاسرتان وبينهما ما تعلم من عداوة وبغضاء .
وفى استطاعتك أن تكون أكثر حكمة وعقلا ، فاصبر حتى ترسم خطة
محكمة تكفل تلاقيكما خفية فى غفلة من الرقباء . وفى استطاعتك بعد
ذلك أن تلقاها كلما شئت وشئت . . هذا اذا كنت حقا قد أحببتها ،
ولم يكن ما تشعر به الآن لا يعدو أن يكون اعجابا عارضا لا يلبث أن
يهدأ أو تخمد جذوته و . . .

فقطع روميو كلامه وقال :

— كلا ! . . كلا . . أنا أحبها من كل قلبى ! . . أحبها كل الحب . .
وسأحبها حتى الموت !

أحلام الحب

بقيت جوليت ساهرة تشارك في مباحج الحفلة حتى دقت ساعات الكنائس في المدينة مؤذنة بانتصاف الليل ، فقالت لها أمها :

— لقد سهرت أكثر مما ينبغي لك يا جوليت ، ويجب أن ترتاحي الآن !

وللمرة الأولى ، لم تقتنع الفتاة بأن أمها على حق ! .. صحيح أنها بذلت جهدا كبيرا في الحفلة وفي الاستعداد لها قبل ذلك ، لكنها لم تكن تشعر بأي تعب ، بل كانت على عكس ذلك تشعر برغبة قوية في أن تبقى في الحفلة ، وأن تعاود الغناء والرقص ! .. على أنها كانت قد تعودت الطاعة والامتثال ، فلم يسعها إلا أن نهضت متثاقلة ، وغادرت القاعة المزدهمة في خطى وثيدة ، وهي ترسل نظرات فاحصة على وجوه المدعوين والمدعوات ، كأنما تبحث بينها عن وجه بعينه !

ولما صعدت الى غرفتها ، واستبدلت بثياب الحفلة قميصها الفضفاض الطويل ، لم تشأ أن تذهب الى فراشها مباشرة ، بل اتجهت الى الشرفة واستندت بذراعيها الى حاجزها ، ثم راحت تتطلع الى الفضاء الفسيح الممتد أمام عينيها ، وهناك في أقصاه نهر الاديج ، لكنه لا يكاد يبين في ضوء القمر والنجوم

وأنعشتها النسمات الرقيقة التي أخذت تداعب شعرها ووجهها . وكانت الليلة من أحسن ليالي الصيف في فيرونا . وأطربتها الموسيقى المنبعثة من نقيق الضفادع في الحقول التي غمرها الماء ، وصرير الجنادب هنا وهناك في أطراف المدينة ، ومن حين الى حين كان سمعها يتبين خلال ذلك أصوات بعض الصيادين والملاحين السابحة بهم زوارقهم في النهر البعيد .. وأحيانا تخفت كل هذه الأصوات ، وتهدأ ضجة من لا يزالون في الحفلة ، فيسود السكون التام . ويخيل اليها إن الكون كله قد استغرق في سبات عميق !

وأطلقت جوليت لفكرها العنان ، وعادتها نشوة السعادة التي شعرت بها تغمرها في الحفلة ، وخيل اليها أن صدرها قد اتسع ، وأن قلبها يهتز طربا بين ضلوعها ، وأخذت المشاهد البهيجة السعيدة التي استمتعت بها تكرر راجعة على لوحة خيالها ، وهي مطبقة جفنيها ، مستندة الى حاجز الشرفة بذراعيها . ومن بين هذه المشاهد ما كان يمر سريعا ولا يلبث أن يختفي . ومن بينها ما كان يستأنى ويتمهل ، فتستغرق بكل شعورها في استجلاء دقائقه وخوافيه !

وقد ذكرت أباهما ، ذلك الشيخ المهيب الذي أحيطه بكل قلبها ، وكان له الفضل الأول في السماح لها بأن تشهد لأول مرة ذلك الحفل الساحر الراقص البهيج !

وذكرت والدتها التي افتنت في تجميلها وتزيينها لتبدو في الحفلة مكتملة الروعة والبهاء . كما ذكرت أوزيبيا مرضعها الظريفة الحنون التي سهرت ليلتين متتاليتين لتتم تطريز الثوب الأبيض الناصع الذي أضفى عليها جمالا وجلالا طالعت آثارهما في كثير من نظرات المعجبين والمعجبات!

وتتابعت على لوحة خيالها صور كثيرين وكثيرات من المدعوين والمدعوات ، في ثيابهم الفخمة الأنيقة ، وزينتهم الباهرة بما اشتملت عليه من جواهر نادرة ثمينة لا تقدر بمال

واستقر خيالها أخيرا عند صورة حلقة الرقص ، فأخذت تستعرض الراقصين والراقصات ، وتتريث عند كل حركة رشيقة ، أو نغمة عذبة ، أو كلمة لطيفة

وما لبث اهتمامها كله أن تركز في صورة ذلك الفتى النبيل ذي القامة الفارعة المشوكة ، والوجه الباسم الصبوح ، والنظرات الهادئة الصادقة ، والبسمات الخفيفة اللطيفة ، والرقصات البارة ، الرائعة يرغم ما لاحظته عليه أحيانا من قلق واضطراب !

وهنا ساءلت نفسها : ترى من يكون ذلك الفتى النبيل الجميل ، ولماذا اختفى فجأة عقب الرقصة الأخيرة ؟

ومضت تتذكر قسما وجهه ، وتحصى نظراته اليها وابتساماته ، ووثابه قطعة قطعة ، وكل حركاته وسكناته منذ وقعت عليه عينها الى أن غادر الحفلة متسللا قبل أن تعرف من يكون !

وحلق بها خيالها في جو المستقبل المجهول ، فتصورت ذلك الفتى النبيل الجميل هو نفسه الضالة المنشودة لوالديها ، لكى يختاراه شريكا لحياتها ، وحافظا لما سيثول اليها من ثروة الأسرة ولقبها ومجدها .

وفتحت عينيها على هذا الحلم الجميل ، فرفعت ذراعيها عن الشرفة ، وسرحت طرفها في النجوم المتألقة على صفحة السماء ، وملأت رئتيها من هواء الليل البليل . ثم أطلقت من صدرها زفرة طويلة ، وقالت تحدث نفسها :

حبذا لو صح هذا الحلم ، ان فيرونا كلها ليس فيها من يستطيع أن يدانى ذلك الفتى في وسامته ورقته وظرفه . وما أسعد قلبى إذا قدر له أن يتحد مع قلبه !

وتولتها رعدة خفيفة ، وتدحرجت على خدها دمة مالبثت أن أعقبته دموع لم تعرف أهى دموع الاسف على فراق ذلك الفتى النبيل الجميل ، ثم هي دموع الفرح والسعادة والأمل في تحقق ذلك الحلم ! وغادرت الشرفة أخيرا ، وذهبت الى فراشها فألقت بنفسها عليه ،

وأطبقت جفنيها من جديد . . وراحت تنشد النوم لعلها أن تجتمع بفتاها
في الأحلام . ولكن طيفه لم ينتظر حتى تنام ، بل سرعان ما عادت صورته
فارتسمت على لوحة مخيلتها ، فلم تتمالك نفسها من الابتسام !

وزاد في ابتسامتها ، أن تذكرت في هذه اللحظة أن جميع المدعويين
إلى الحفلة ، لا بد أن يكونوا من أصدقاء الأسرة وأعوانها ، فلم يكن اذن
بينهم غير هؤلاء ، اللهم الا حاكم المدينة وبعض تابعيه ، وليس فتاها
أحدهم على أى حال . وعلى هذا ليس بعيدا أن يتحقق حلمها ، وأن يكون
ذلك الفتى هو من ينشده لها أبواها الحبيبان لترشف معه كئوس السعادة
والصفاء

وأخذها النوم وهى ما زالت تبتسم غبطة بهذا الخاطر السعيد !

شعور مستبادل

عاد روميو الى قصر أبيه ، وأوى الى فراشه وما زالت صورة جولييت تملأ أقطار ذهنه ، ولم تطل ليلته لكنه لم ينم ، وبقي طيفها الجميل ، وصوتها ذو الرنين المنعش ، ورقصها المرح المحبب الرتيب ، الشغل الشاغل لقلبه وعقله حتى الصباح

على أنه نهض خفيفا نشيطا ، واستهل يومه الجديد بالتفكير فى جولييت ، ورسم الخطط للقائها فى أقرب وقت مستطاع

وأعانه صديقه ماركوتشيو بقدر ما استطاع ، مخلصا له النصيح ، حريصا على سعادته وسلامته ، ولكن الخطط التى رسمها لم تنل رضا روميو ، وأمضى الاسبوعين التالين وهو ما زال يفكر ويدبر ولكن دون جدوى

وانحصر اختياره أخيرا فى وسيلتين اثنتين : احدهما أن يتسلق اليها أسوار قصر أبيها أو حصنه الحصين ويرشو الحراس والخدم إذا اقتضى الأمر ذلك . والأخرى أن يأتى البيوت من أبوابها ويلتزم جانب الصراحة اللائقة بكرامته وكرامة أسرتهما فيطلب الزواج بها !

وآثر أن يبدأ بالوسيلة الأولى ، وان كانت أخطر وأصعب ، فقد خشى أن يقوم العداء المستحكم بين أسرتهما سدا فى وجهه من أول الأمر ! وبقي حتى صباح اليوم التالى وهو على هذا رأى ، وكان اليوم يوم أحد فارتدى ثيابه وغادر القصر مبكرا ، ليصلى فى الكنيسة كما اعتاد

على أنه لم يذهب الى كنيسة « الثالوث المقدس » التى يتبعها ، بل توجه تلقاء (كنيسة الرسل) المجاورة لقصر آل كابلليتى !

ودخل الكنيسة دون أن يعرفه أحد ، فقد كان فى ثياب بسيطة ، وأكثر وجهه تغطيه قبعته ، ثم اتخذ مجلسه فى ركن قصى بجانب عمود ضخمة وأخذ يسرح بصره فى وجوه الحاضرين والحاضرات غسى أن تكون بينهم

ولكنه لم يجدها ، وقد تحقق ذلك برغم قلة الضوء فى الكنيسة ، إذ كانت أشعة الشمس لا تدخلها الا بمقدار لما يغطى زجاج النوافذ من صور ملونة للقديسين بين حمراء وصفراء وزرقاء . وبرغم كثرة الأعمدة الضخمة ، والشمعدانات الهائلة التى تحيط بالمذبح القائم فى أقصى المكان ، وترسل خوله أضواءها الحمراء والصفراء

وتعلقت عيناه بالبواب ، ولكن أحدا لم يدخل منه ، فحدثته نفسه بأنها حضرت مبكرة وانصرفت قبل حضوره .

ثم تذكر أن قصر أبيها به كنيسة صغيرة ولعلها صلت فيها

وبقى روميو هنالك وقتا غير قصير نهبا لمثل هذه الوسائس والافكار ، ثم أفاق من حيرته وقلقه على سماع أصوات المرتلين ، وبدأ الكهنة يتناوبون الصلاة والمرتلون يرددونها وراءهم ، بينما أنغام الأرغن ترن في جوانب الكنيسة وكأنها عاصفة تزار من بعيد ، وسحائب الدخان المتصاعد من المباخر تنعقد في الجو فتشيع فيه رائحة عبقة تزيد في خشوع المصلين

ولاح له في هذه اللحظة أنه اقترب اثما كبيرا وخالف وصايا الله ، لأن بحثه عن تلك الفتاة ، وإن كان يحبها حبا طاهرا ، لم يكن ينبغى له أن يقوم به إلا بأذن من والديه

وصادف أن كان أحد الكهنة في تلك اللحظة يتلو صلاة تنهى عن الخداع والاستماع لوحى الشيطان الذى يوقع الناس في فخاخ الخطيئة من حيث لا يشعرون ، فاقشعر جسمه وساوره الندم على أنه لم يظن الى ما فى عمله من مجافاة لتعاليم الدين والاحترام الواجب للكنيسة .

وفيما هو كذلك ، حانت منه التفاتة ، فاذا به يفغر فاه ، ويكاد ينهض معلنا عن شدة غبطته . فهناك على قيد خطوات من الركن الذى جلس فيه ، كانت جوليت جالسة تستمع للصلاة مطرقة فى خشوع وسكون !

وحينما رفعت رأسها بعد قليل ، تلاقت نظراتهما ، فكاد قلبه يقفز من بين ضلوعه ، ولحظ رعشة خفيفة اعترتها حينذاك ، كما لاحظ أن أحد حاجبيها ارتفع قليلا ، وأن خديها تضرجا بحمرة محبة ، ولمعت على شفثيها ابتسامة عذبة تنبئ بالرضا والابتهاج

وهكذا بدت جوليت فى عينيه أجمل وأروع مما رآها من قبل !

ولم يحول بصره عنها منذ تلك اللحظة ، أما هى فعادت الى اطراقها وخشوعها ، ولكن قلبه حدثه مؤكدا أنها عرفتة كما عرفها ، وأنها تفكر فيه كما يفكر فيها . وجاء الدليل العملى على صحة ذلك فى الدقائق التالية ، إذ أنها حاولت مرتين أن تختلس النظر اليه ، وكان واضحا من ردها طرفها فى خفر وحياء ، ومن قلقها فى مكانها ، عدا ما طالعه فى عينيها . . . كان واضحا من هذا كله أنها تبادلته شعوره ، وإنها لا تقل عنه فرحا بهذا اللقاء

وانتهت الصلاة أخيرا ، فنهض روميو واتخذ طريقه الى باب الخروج فى خفة ونشاط

فى سباق الزوارق

لم يكن لروميو من هم بعد ذلك اللقاء غير المنتظر فى الكنيسة الا أن يفكر فى أمر جوليت ، وفى اتخاذ الوسائل التى ترفع قدره عندها ، وتقوى فى فؤادها ذلك الشعور المتبادل الذى رآه فى نظراتها اليه

وكان شباب المدينة قد أزمعوا فى تلك السنة ، إقامة مباريات رياضية عامة فيما بينهم ، لنيل البطولة فى الفروسية والمبارزة وغيرهما . على أن يكون بعضها فى البر ، وبعضها فى زوارق خاصة فى نهر الاديج . فاعتزم روميو أن يشترك فى أكثر هذه المباريات ، على أن تشهدها جوليت فيمتع عينيه بمرآها ، وترى بعينيها شجاعته وبراعته وتفوقه على الاقران فى حومات النزال والطعان !

وأدلى بذلك الى صديقه الوفى مركوتشيو ، فاستحسن فكرته ، وقال له :

— انه لا شك فى أنها تبادل لك الحب ، ولكن مشاهدتها انتصاراتك فى المباريات القادمة ستجعل لك فى قلبها مكانا أسمى وأقوى . فلا يمكن بعد ذلك أن تسلبو هواك !

وبدا البشر فى وجه روميو ، ثم قطب جبينه فجأة وقال :

— أخشى ألا يسمح لها والداها بحضور المباريات ، أو أن تؤثر هى على مشاهدة المعارك التى تدور فيها ، خروجها للتنزه فى الحقول والبساتين !

ففكر مركوتشيو قليلا ثم قال له :

— ما أظن أن والديها يمنعانها ، ولكنها بطبعها تؤثر المناظر الخلوية الجميلة ، وينبغى أن نشوقها الى حضور المباريات

فسأله روميو فى لهفة : « كيف السبيل الى ذلك ؟ »

فقال : « هذه مهمة يسيرة ، وسأتولى القيام بها ، فاطمن من هذه الناحية »

فلم يتمالك روميو عواطفه ، وأغرورقت عيناه بدموع الفرح والشكر ، أزاء تطوع مركوتشيو للقيام بهذه المهمة

وفى اليوم التالى ، توجه مركوتشيو الى قصر آل كابلليتى ، وأخذ يحوم حوله محاذرا أن يثير أى ريبة فى أمره ، ثم تلىظ فى الاتصال

ببعض الخدم ، ونفحهم بعطية سخية من المال ، وأعرب لهم وهو يتظاهر بشدة الحياء والاحجام أنه يحب زميلة لهم لا يعرف اسمها ، ووصف لهم الخادمة الخاصة بجولييت

وتلقى الخدم اعترافه هذا بغير قليل من السخرية والاستهزاء ، لكنه تحمل ذلك صابرا ، ومضى في تمثيل دوره ، وفي اكتساب عطف أولئك الخدم بكل ما عهد فيه من ذكاء ودهاء وسخاء ، الى أن لانت له قلوبهم وتطوع أحدهم لمعاونته على لقاء الخادمة التي زعم أنه يحبها ، وكانت هذه من الساذجة بحيث جازت عليها حيلته ، فتلقت غزله وحبه المصطنع لها بأحسن القبول ، ولم يفترقا الا على موعد للقاء جديد !

وفي هذا اللقاء الثاني ، استطاع مركوتشيو أن يحمل تلك الخادمة الساذجة على أن تدبر له وسيلة الى مقابلة أوزيبيا مرضع سيدتها ، زاعما أن زميلا له وقع في غرام هذه المرضع ، وأنه يسره أن يتوسط لديها لكي تستجيب لغرام زميله

وما كاد مركوتشيو يخلو الى أوزيبيا حتى بدأ يمثل أمامها دورا جديدا ، فزعم لها أنه هو نفسه الذي تيمه حبها وأضناه ، وأنه انمسا تظاهر بحب تلك الخادمة لكي يصل بوساطتها الى لقاءها هي وبثها مايجد من هيام بحبها واعجاب بجمالها

وكانت أوزيبيا فتاة متدينة مستقيمة لم تحب أحدا في حياتها غير سيدتها جولييت ، ولم يسبق لها عهد بسماع عبارات الاعجاب بها والتودد اليها ، ولهذا سرعان ما لعبت عبارات مركوتشيو بلبها ، وشعرت بقلبها يهتز طربا واعجابا بالفتى المحب الوسيم الذي ساقته اليها الاقدار ، على أنها برغم ما تملكها من الزهو والفخار بأنها أسرت فؤاده ، جاهدت لاختفاء عاطفتها الثائرة ، ولم تشأ أن تبت في الامر ، واعدة بأن تفكر فيما عرضه عليها مركوتشيو ، ثم تنبئه بما يستقر عليها رأيها في المقابلة التالية

ولم يشك مركوتشيو في أن المرضع الفقيرة المحرومة من الحب قد استجابت لقلبها الطيب لنداء حبه التمثيلي الزائف ، فاكتمى بأن قال لها وهو يهم بالانصراف :

- انى سأشترك في المباريات التي ستقام بالمدينة عما قريب ، ولا شك في أنها ستكون مباريات ممتعة مسلية تسر الناظرين . ويا حبذا لو حسنت لسيدتك جولييت أن تحضرها لكي يتسنى لك حضورها معها . فليس هناك ما يسعدني أكثر من أن أشعر وأنا أنازل المنافسين حينذاك بأن عينيك الجميلتين تتابعنى نظراتهما وتنفخ فى قلبى روح الشجاعة والاقدام فيسهل على الانتصار !

وشد ما كانت فرحته حين لقيها في المرة التالية ، فاذا هى تصرح له بأنها استطاعت اقناع جولييت بحضور المباريات اذا سمح لها بذلك والداها ، ثم قالت له وهى تغالب حياءها :

- على أنى لم أجد من المناسب أن أخطبها منذ البداية فى شأن اصطحابها اى الى شهود المباريات . وأرجو أن أتمكن من اقناعها بذلك بعد حين !

وكانت فرحة روميو أشد ، حين قابله ماركوتشيو بعد ذلك وزف اليه البشرى بأن جوليت وعدت بأن تشهد المباريات

أخذت مدينة فيرونا تواصل الاستعداد للمباريات المختلفة بين شبانها ، وطاف المنادون بأنحاءها طول الأسبوع السابق للمباريات ، داعين النبلاء والأعيان وغيرهم الى الحرص على ألا يفوتهم الاشتراك فيها ، واطهار حفلاتها بالمظهر الرائع اللائق بها . وكان بعض المنادين يستقلون جيادا مطهمة مسرجة ، ومن خلفهم بعض الفتيات الجميلات

وكذلك حرص السيد برتولوميو ديلا سكال حاكم المدينة على أن يشرف بنفسه على تنظيم كل مباراة ، بالتثبت من شخصيات النبلاء المشتركين فيها ، وحث النبلاء الآخرين على مشاهدتها ومعهم أسراتهم

وبدأت المباريات بمعارك الزوارق فى نهر الاديج ، فاصطفت زوارق المتبارين فى الحوض الطويل بين الجسر المؤدى الى البندقية فى الشمال والجسر المؤدى الى ما فتو فى الجنوب . وأقيم وسط ذلك الحوض صندل كبير ، أعدت فوقه منصة عالية لجلوس حاكم المدينة وحاشيته وخاصة أصدقائه . والى يمينه جلس فريق الامبراطورين وفى مقدمتهم آل مونتيكى ، والى يساره فريق البابويين وفى مقدمتهم آل كابلتي ، وقد بدت جوليت بين والديها مرتدية أفخم الملابس مثلها ، ووجهها يتهلل بالبشر والحبور . ووقفت أوزيبيا خلفها وفى يدها مروحة لتروح بها على وجه سيدتها اذا اقتضى الامر ذلك أثناء المباراة

وازدحم شاطئ النهر فى تلك المنطقة بأكثر أهل المدينة الذين بكروا بالتوجه الى هناك قبل الانتهاء من اقامة القداس ، ووقف كثير منهم على الأسوار والأسطح المطلة على الحوض ، وامتلا الجو بضجة تصايحهم وتبادلهم التحيات والاحاديث ، وتبادلهم الشتائم واللكمات أحيانا

ووقف حرس الحاكم ، وحملة سلاحه ، والمنادون التابعون له ، بين فريقى الامبراطورين والبابويين ، ليحولوا دون نشوب أى عراك بينهما ، فى حين كان هو يوزع تحياته وابتساماته على الفريقين بالعدل والقسطاس

وأخيرا نفخ فى الأبواق ايدانا ببدء المباراة ، فانطلقت الزوارق الى عرض النهر ، وكل منها يقوده ثمانية من الملاحين ، بأيديهم مجاديف حمراء ، أو فضية اللون . وعلى ظهورها وقف النبلاء الشبان بشبابهم الملونة الزاهية الفضفاضة ، متوثبين للنزال

وتابعت جوليت بنظراتها تلك الزوارق ، وكانت نفسها قد حدثتها بأن ذلك الفتى القوى الجميل الذى راقصته فى الحفلة ولمحته بعد ذلك

فى الكنيسة المجاورة لقصرها ، قد يكون بين المتبارين ، وكان وجهها وهى تبحث عنه يعلوه الابتسام حيناً ، والتجهم حيناً ، بحسب ما يصوره لها الخيال من انتصار الفتى أو فشله فى المباراة !

ولمحتة أخيراً فى زورقه المنطلق به الى المعمة ، وقد وقف منتصب القامة ، مشرق الوجه ، بآدى القوة والجرأة والثبات . ورأته أوزيبيا فى اللحظة نفسها فربتت كتف جوليت وأشارت لها نحوه قائلة :

— انظرى يا سيدتى . . انظرى . ما أروع هذا النبيل الشاب ذا الثوب الأخضر !

وصاحت بها جوليت محتدة قائلة دون أن تحول نظرها عن روميو:

— اسكتى . . لا تتكلمى وانظرى فقط !

وعرفت جوليت منازل روميو ، فقد كان نبيلًا عملاقًا من آل كابلليتى ،

ثم ترامت الى سمعها هتافات النظارة ، وبعضهم يهتفون قائلين : «كابلليتى» وبعضهم يرددون اسم «مونتيكى» فاشتد خفقان قلبها ، وأدركت لأول مرة أن فتاها ذاك من آل مونتيكى أعداء أسرتها القديما. الألداء !

واشتبك الشابان فى عراك عنيف مثير ، وبذل كل منهما محاولات عدة للإيقاع بمنافسه . ومضت فترة رهيبة بلغت فيها ضجة النظارة أشدها . وقبل أن تنتهى الجولة الأولى تمكن روميو من مغالبة منافله العملاق وأوقعه على ظهر زورقه بين الهتافات العالية والتصفيق الشديد !

وما بدأت الجولة التالية ، حتى كثر العملاق منازل روميو عن أنيابه ، وتحفز للانقضاض عليه لينتقم لنفسه . واشتدت ضجة المشجعين من آل كابلليتى وأعوانهم ، وخيل الى جوليت أن ذلك الانتقام سيكون هائلا مروعا ، فراحت تحرق فى الشابين مرتاعة ذاهلة ، وما هى الا لحظة يسيرة ريثما وثب قريبها العملاق لينقض على منافسه المتربص فى هدوء ، ثم اذا بهذا يزوغ منه فى حركة خاطفة غير متوقعة ، فهوى العملاق فى الماء ، بعد أن رسم بجسمه الضخم نصف دائرة فى الهواء !

وصفق النظارة طويلا ، وعلت الهتافات للبطل المنتصر روميو مونتيكى ، فالتفتت جوليت الى أوزيبيا وهمست قائلة لها بصوت مرتجف :

— رأيت يا أوزيبيا . . هذا الفتى الذى انتصر على رجلنا اسمه روميو . . روميو مونتيكى . . ألا تسمعين !؟

وبقيت أوزيبيا صامتة ، وقد جحظت عينها ، وفغرت فاهها ، ثم غمغمت قائلة :

— روميو ؟ . . اسمه روميو ، ومن آل مونتيكى !؟

نم زفرت زفرة حرى ، وأضافت الى ذلك قائلة :

— فليكن ما يكون !

وعجبت جوليت من أمر مرضعها ، ولم تدر سبب ذهونها وقلقها فاشاحت بوجهها عنها ، ومضت تتأمل روميو وهو ما زال واقفا في زورقه ملوحا بذراعيه ردا لتحيات الجماهير التي طغت عليها الحماسة بعد انتصاره الرائع ، ثم قالت تحدث نفسها :

— نعم .. اسمه روميو ، وهو من آل مونتيكى .. فليكن ما يكون !
وانتهزت أوزيبيا فرصة انشغال سيدتها عنها ، فسارعت الى رسم علامة الصليب على وجهها خفية ، وأخذت تتمتم ببعض عبارات الشكر للقديسة شفيعتها ، وتحدثت نفسها قائلة :

— لقد كذب على اذ أخبرني بأنه سيشترك في مباراة اليوم ، ولكن حسنا ! .. لقد أنقذني هذا من جنون محقق فى هواه لو أنه كان صادق الوعد ، وكان هو المنتصر الآن !

الفصل الخامس

القنبلة الأولى

الفارس المنتصر

كان اليوم التالى قد حدد موعدا لاجراء مباريات متعددة مختلفة فى سباق الخيل والخنازير وألعاب الفروسية فى الميادين .

وقد حرص روميو قبل عودته الى قصر أبيه فى اليوم السابق على استكمال جميع الاجراءات المطلوبة لاشتراكه فى مبارزة الفرسان ، فقدم لمنظمى المباريات الأوراق التى تثبت أنه من النبلاء . ثم أعد جواده وخوذته وثيابه الخاصة بالمبارزة وسيفه وترسه واصدر تعليماته الى حاملي سلاحه ليكونوا على استعداد للتوجه معه الى ميدان المباراة عند شروق الشمس .

وأضى ليلته يحلم بانتصاره الرائع فى معارك الزوارق على عملاق آل كابلليتى . وبما وقر فى ذهنه من استجابة جوليت لحبه وظهور ذلك جليا فى متابعته بنظراتها اثناء النزال ، تلك النظرات المعبرة التى أغنته عن أى حديث أو تصريح !

ولم يكن لديه أى شك وهو يغادر قصر أبيه الى الميدان فى أنها ستكون هناك . ومن هنا لم يشأ أن يضع على سلاحه شعار آل مونتيكى كما تعود فى مباريات مماثلة سابقة ، واكتفى بالشعار العام لمدينة فيرونا .

وحينما سئل فى ذلك اجاب بقوله :

— لا أريد أن يزعم أحدا فيما بعد أننى استعنت بشعار أسرتى ونفوذها السياسى على احراز الانتصار !

والحقيقة أن روميو خشى أن يكون فى وضع شعار أسرتى على سلاحه ماينفر آل كابلليتى ، وقد تتأثر بهم جوليت فتتفر منه هى الاخرى منساقة فى تيار العداوة التقليدية القائمة بين الأسرتين . وهذا ما ليس يرضاه .

وقد سبقه الى الميدان كثير من النبلاء الشبان ؛ ولكن أحدا منهم لم يظفر بمثل ما استقبله به النظارة من التصفيق والتهتاف حين دخل ميدان المباراة على جواده ومن خلفه أحد أتباعه مدججا بالسلاح .

وتريث قليلا ليرد تحيات الجماهير ، ولسكن اهتمامه كان منصرفا الى البحث عن جوليت ، وشد ما كانت سعادته اذ لمحها جالسة فى مكانها بالأمس بين والديها الى يسار حاكم المدينة . واكتفى كلاهما بأن تلاقت نظراتهما فى لمحة خاطفة لكنها تحمل من المعانى كل ما أراداه !

وتبارز النبلاء اثنين اثنين ، ثم أربعة أربعة ، وكان على الفارس المغلوب أو الذى يصيبه الاعياء ويرغب فى ترك المباراة أن يزيج خوذته قليلا الى

الوراء • وقد بارز روميو كثيرا من النبلاء واحدا واحدا ، كما اشترك مرات عدة في مبارزات جماعية ، ولم يحدث ان اضطر قط خلال هذه المبارزات الفردية أو الجماعية الى زحزحة خوذته الى الوراء ••

والحق أن اعجاب النظارة ببراعة روميو في المبارزة واحكامه تسليد الضربات الفنية الى منازلهم ، لم يكن يقل عن اعجابهم بوسامته وأناقته ، وابتعاده عن الزهو والكبرياء والخيلاء •

وفي الألعاب الختامية الجماعية للمباراة ، كان روميو هو المجلى أيضا ، ولكن حدث قرب الانتهاء من تلك الألعاب أن هجم عليه أحد الفرسان من آل كابلينتي ووجه اليه ضربة من سيفه أودعها كل ما فيه من قوة وحقد ورغبة في الانتقام • وهنا امتقع وجه جوليت وتصبب العرق باردا من وجهها ، وكاد قلبها يقف لفرط جزعها • ولولا ان جف حلقها واحتبس صوتها في تلك اللحظة لأطلقت صرخة دوت في أرجاء الميدان وفضحت من أمرها ما كان في طي الكتمان !

على أن روميو ، استطاع بمعجزة أن يروغ من تلك الضربة الغادرة ، فأصاب جواده بدلا منه ، وكبابه جواده الجريح خلال عدوه بأقصى سرعته ، وسقط هو تحت الجواد • لكنه ما لبث أن نهض منتصب القامة وضاح الجبين باسم اشغر ، وخطا بضع خطوات في خفة ورشاقة ، ثم وقف يرد تحيات الجماهير التي انطلقت هتافات تشق عنان السماء ، وتطغى على الأبواق التي نفخ فيها ايدانا بانتهاء المباراة !

وحينما اتجه ببصره الى منصة الحاكم ليرد تحيته ، التقت عيناه مرة أخرى بعيني جوليت ، وشعر بأن في نظراتها ما هو أقوى وأعلى من كل هتاف وتصفيق !

وفي المساء اقيمت بقصر السيد مونتيجي حفلة كبيرة ابتهاجا بالانتصارات الرائعة التي أحرزها روميو في مختلف المباريات • وامتلاء القصر على سمعته بالمدعوين والمدعوات ، وشرب الجميع حتى ثملوا رجلا وسيدات ، ولبثوا يشربون ويضطربون ويرقصون حتى ساعة متأخرة من الليل •

وكان روميو يتلقى التهاني بما عهد فيه من وداعه وتواضع وحياء • ولم يشأ أن يشرب طول الحفلة غير كأس واحدة ، أبقاها طويلا فوق شفثيه وهو مسبل الجفنين ، وعلى لوحه مخيلته صورة جوليت كابلينتي ترنو اليه وتبتسم ، فيهتز لفرط غبطته وسعادته من قمة رأسه الى أخمص قدميه • ويخيل الى ناظره انها فرحة بالانتصار في ميدان المباريات ، وما هي الا فرحة الشعور بالحب المتبادل والأمل في المستقبل المشترك المنشود •

أما جوليت ، فعادت الى قصر أبيها بعد انتهاء المباراة واعتكفت في غرفتها بعد أن بدأت ثيابها بمعاونة أوريبييا ، ولم يخف على هذه سر ابتهاج سيدتها ومرحها وتهلل وجهها ، وطاشت بذهنها صورة ماركوتشيو ذلك العاشق المتيم الذي ما كاد يظهر حتى اختفى ، فتنهدت وقالت لجوليت :

— ان الطقس اليوم كان جميلا منعشا كمنظر المبارزات التى شهدناها !

وحدثتها جوليت بنظرة فاحصة ، فأدركت أن صدر الموضع الوفية
ينطوى على سر تجاهد لابقائه مكتوما ، ولم يكن لديها وقت لاستطلاع ذلك
السر ؛ فتلطفت فى صرف مرضعها ، لكى تخلو الى نفسها فى شرفتها ،
وتملأ رثتها من هواء الليل الجميل البليل ، وتستعرض بذاكرتها مناظر
اليوم والامس قبله ، ولم يكن فيها منظر يخلو من وجه روميو . . روميو
الجميل البطل الذى انتصر على كل منافسيه !

تحت شرفة جوليت

عجب مركوتشيرو من أمر صديقه روميو حين اعتذر هذا من أنه لا يستطيع تمضية السهرة معه ، وكانا قد اتفقا على ذلك من قبل .

وكانت حجة روميو أنه ما زال تعباً بعد الجهود التي بذلها في المباريات ، فهو لذلك أشد حاجة الى الراحة منه الى اللهو والتسلية .

ولم يشأ مركوتشيرو أن يكثر جداله في هذا الأمر ، إذ أدرك أنه يريد أن يخلو الى نفسه وإلى الذكريات العذبة التي خلفها في ذهنه لقاء جوليت . وعلى هذا غادره متمنياً له الراحة والعافية ، وعاد من حيث جاء .

ولم تمض دقائق ، حتى غادر روميو وحده قصر أبيه ، ومضى يجتاز شوارع فيرونا الضيقة ، آخذاً طريقه الى قصر آل كابلليتي ، فلما بلغه راح يطوف حوله ؛ ويتأمل أسواره محدثاً نفسه قائلاً :

— هنا نشأت جوليت وترعرعت . وهنا لقيتها في الحفلة فغنينا ورقصنا معا . . . وتبادلنا نظرات الحب والاعجاب والاخلاص ! . . آه ما أحلى عينيها ! . . وما أروع ابتساماتها وأرشق حركاتها وإشاراتنا !

وكانت المدينة كلها تغط في نوم عميق ، وقد ساد المنطقة سكون الليل فلم يكن يسمع سوى نقيق الضفادع في الحقول والقنوات المجاورة ، وبين الفينة والفينة يسمع وقع خطوات الحارس المسلح الساهر فوق سطح القصر وهو يمشى في ثقيل ليطرد عن عينيه النعاس .

وواصل روميو طوافه حول القصر ، متستراً بظلال الأشجار القائمة بجانبه حتى لا تقع عليه عين الحارس في ضوء القمر الذي كان بازغاً حينذاك ووقف بعض الوقت تحت سقيفة هناك ، ثم لاح له ضوء قنديل خافت ينبعث من غرفة ذات شرفة منخفضة لا يزيد ارتفاعها فوق سطح الأرض على عشرة أقدام ، ولاحظ أن هذا الموضع من القصر ليس محصناً ، فأخذ يسائل نفسه قائلاً :

— أهذه غرفة جوليت ؟ . . وهل هذا القنديل يلقي أشعته عليها الآن وهي ممددة في سريرها وأهداب عينيها تظلل خديها ؟ . . ولكن لا . . لا يمكن أن تكون هذه الغرفة المتواضعة غرفة جوليت .

وبقي ساعة أو أكثر وعيناه لا تفارقان الشرفة المائلة أمامه والقنديل المعلق خلفها ، وحدثته نفسه غير مرة بأن يتسلق السور ويصل الى تلك الشرفة ، ولكنه كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ؛ وفي بعض الأحيان كانت جرأته تتغلب على إحجامه فيغادر مخبأه ويهم بتسلق السور ، ثم يسمع



روميو يتسلق شرفة جولييت

وقع خطوات الحارس أو يخيل اليه ذلك ، فيعاوده الاحجام ويكر راجعا الى مخبئه تحت السقيفة .

ولم يرجع روميو الى قصر أبيه الا حينما بدأت طلائع النهار تملأ الافق فتفر أمامها جحافل الظلام !

وفى الليلة التالية ، عاد روميو الى مكانه بالامس ، وبقي ساعات فى تلك السفينة يرقب منها الغرفة المضاعة ذات الشرفة المنخفضة القريبة . وقوى شعوره فى هذه المرة بأنها الغرفة الخاصة بجولييت ، وان لم يكن لديه على ذلك أى دليل !

وحينما دقت ساعات المدينة مؤذنة بانقضاء ساعتين بعد انتصاف الليل ، تسلل خارجا من مخبئه ، ثم تريت قليلا حتى تحقق أن ليس ثمة من يشعر بوجوده هناك ، ثم واصل تسلكه متجها الى الشرفة وقد تعلقته بها عيناه ، وكان الطقس حارا ، وضوء القمر يغمر القصر وما حوله من الحقول والبساتين .

وحدث فى هذه اللحظة ما جعله يقف ذاهلا حائرا فاغرا فاه لفرط دهشته وقد زايلته شجاعته وجراته ، فقد فوجئ بفتح النافذة الصغيرة المؤدية الى الشرفة وظهور جولييت خلفها بوجهها المشرق الوضاح !

وهم روميو بالرجوع الى مخبئه ، ولكن عيني جولييت اللماحتين استقرتا على شخصه ، ثم سرعان ما هتفت قائلة فى صوت مرتعش النبرات :

— من هناك ؟

وتسمر الفتى فى موضعه ، ولم يدر كيف يجيب ، ولكنه خشى أن يزيد صمته فى قلقها وخوفها ، فنصب قامته الفارعة ورفع وجهه نحوها ، ثم قال هامسا :

— اطمئنى يا سيدتى .. اطمئنى كل الاطمئنان ! .. اننى لا أريد لك الا الخير ، وأريده لك من صميم فؤادى ، اننى أنا .. روميو !

وبقيت جولييت تحديق فى وجهه هنيهة وقد انحنت قليلا فوق حاجز الشرفة ، ثم همست قائلة وقد عرفته :

— أنت السيد روميو مونتيكى ؟! .. عجباً ! ماذا أتى بك الى هنا ، وأى شيء تريد ؟

فخطا روميو خطوتين نحوها ، وهمس قائلا :

— ان الليل لطيف هنا ! .. وقد جئت لانعش به قلبي وأمتع به عيني بعد أن جفانى المنام !

وملأت جولييت رثتيها من هواء الليل ، ثم قالت له :

— أنا أيضا لم أستطع النوم ، وشعرت بأنى فى حاجة الى هواء الليل ، ولكن .. ثم سكنت ولم تتم عبارتها فأدرك انها لم ترد أن تسأله مرة أخرى

عما أتى به الى ذلك المكان تحت شرفتها ، وزاده هذا ايماناً بأنها تبادله
الحب ، فتنهده هو الآخر وقال لها :

— ما أجمل الطبيعة هنا وما أبدعها ! .. ان القمر يرسل ضوءه
الهاديء على البساتين والحقول والغدران . وهذا النسيم اللطيف يوقظ
الزهور والرياحين من سباتها فتفتح عيونها للضوء وتبتسم وتتمايل فتملأ
الجو فتنه وبهجة وعطرا ! ..

ولمعت عينا جولييت ، وانفرجت شفاتها عن ابتسامة خفيفة ثم وضعت
يدها فجأة على قلبها ، وتراجعت قليلا في موقفها خلف النافذة ، وقالت في
صوت ينم عن القلق والاضطراب :

— عم مساء يا سيدى !

وهمت بالتراجع ، فابتدورها روميو قائلا في لهفة وتوسل :

— سيدتى .. لا تحتجبنى عنى هكذا ! لا تجعلينى أتهم نفسى بأنى
حرمتك شيئا لان ينعشك ويسعدك .

فتريثت ووقفت هنيهة جامدة كأنها تفكر فى شيء ، ثم عادت فانحنيت
على حاجز الشرفة ، وهمست قائلة له :

— ان هواء الليل منعش ، والقمر جميل ، وليس أحب الى من أن أبقى
هنا ما دام هذا يسعدنا معا ! .. ولكن أبى يغضبه ولا شك أن يعلم أنى
أسهر هكذا .. وان غضبه ليكون أشد وأدهى ان علم بأنى تحدثت اليك !
فقال لها روميو :

— لماذا ؟ .. ليس هناك مطلقا ما يدعو الى ذلك .. اننى أجلك وأقدرك
ولا يمكن أبدا أن أنظر اليك كما أنظر الى عدو .. هل تعديننى أنت
عدوا ؟

فابتسمت جولييت ، ثم قالت له :

— كلا ! .. أنا لا أعبدك كذلك ، ولكن التقاليد تقضى بأن أجتنب
الاتصال بأى أحد من أسرتك — أنسيت ما بين أسرتينا من عداة مستحكم
قديم ؟

فقال لها : « لكننى لا يمكن أن أسمح لنفسى بأن أبغضك أو
أخشاك ! »

قالت : « وأنا أيضا لا أسمح لنفسى بأن أبغضك أو أخشاك ، غير اننا
لا نستطيع أن نخرج على تقاليد أسرتينا . وهكذا أرادت الاقدار ! »

فسكت روميو هنيهة ، ثم مط شفتيه وهز رأسه أسفا وقال :

— صدقيني .. ان اسم الأسرة فى اعتقادى لا دخل له فيما تكون
الصدور والقلوب .. ولو اننا سميننا الوردة شوكة والشوكة وردة لظل
عبير الوردة يفوح وينعش الصدور ، وظلت الشوكة تجرح وتدمى وتوجع !

وكان روميو يتكلم بكل قلبه ، وعيناه شاخصتان الى جوليت . فما
كاد يتم عبارته حتى رآها ترفع يديها عن حاجز الشرفة فجأة ، ثم قالت
له في صوت مرتجف فيه مزيج من الخوف والقلق والصراحة والاخلاص .

- ان قلبي يخفق أيها السيد ، ويخالجني الشعور الآن بأن وقوفنا
معا هنا في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ليس مما يدعو الى الاطمئنان

ثم ازداد صوتهما اضطرابا وتقطعا وواصلت كلامها فقالت :

- نعم أيها السيد . . . أنى خائفة . . . وأشد ما أخافه أن يكون مجيئك
وحدك الى هنا الآن انما دفعك اليه ماتكنه أسرتك لأسرتي من العداوة
والبغضاء ، ولعل أحدا يأتي الآن فيرانا . . . وحينئذ تفخر أنت وأسرتك
بأنك استطعت أن تلحق العار بأسرتي ، وإيا ما كان الامر . أرجو أن
تذهب ، بل أنا استحلفك أن تذهب !

وسادت فترة صمت وسكون ، كانت جوليت خلالها تنتفض في
وقفها ، والقلق والجزع يملآن جوانب نفسها ، في حين شعر روميو بأن
موجة من الشفقة والحنان تغمره من قمة رأسه الى أخمص قدمه : وقال
لها :

- كلا يا جوليت ! . . . اننى ماجئت الى هنا الا لأننى أجلك واقدر
مزايك وشمائلك الحسان .. وان أقصى ما أرجوه أن تثقى يا فتاتي الجميلة
الفاضلة بحبى واخلاصى اللذين أشهد الله عليهما !

وبقيت جوليت تنتفض ، ولكنها في الوقت نفسه عادت الى موقفها
الاول مسندة ذراعيها الى حاجز الشرفة ؛ وعيناها معلقتان بشفتيه ،
فاستأنف كلامه وقال :

- لا تحرمينى نعمة النظر اليك ، ولا التمتع بحديثك ؛ انك تسعدينى
حين أراك ، وان طيفك يبهجنى حين أكون وحدى ، اننى أضع حياتى كلها
بين يديك ورهن إشارة منك . . . فتقى بى يا فتاتى ، وتونى على يقين من
أن سعادتك هى سعادتى وكل أمل فى الحياة . نعم ان العدا بين أسرتينا
قديم مستحكم ، ولكن ما ذنبى أنا وما ذنبك أنت فى هذا ؟ . . . ثم من
يدرى ؟ أليس من الجائز أن يسكون فيما يعمر قلوبنا من وفاء واخلاص
ومحبة ، ما يذهب بأحقاد الاسرتين النبيلتين ، ويضع حدا لما أنهكهما من
المعارك والخصومات ؟ !

وشعرت جوليت شعورا عميقا باخلاص روميو فى حبها ، وكانت
تنظر الى وجهه فى ضوء القمر فتراه قد ازداد روعة وبهاء ، وتحس أن
صوته ينساب فى أذنيها انسياب الاغنية العذبة اللطيفة ، ويصل الى قلبها
فى رقة وهدوء .

وقالت لنفسيتها : « هنا قد تحققت أعز أمنية راودت خيالى ، ان هذا
الفتى النبيل الجميل يحببنى حقا . . . ولم يخدعنى قلبي حين أحبيته منذ
رأيتة » .

وهكذا وجدت نفسها قد اطمأنت اليه كل الاطمئنان ووثقت به كل الثقة ، وبعد ان كانت تخشاه على نفسها وعلى أسرتها ، صارت تخشى عليه هو أن يناله مكروه اذا شعر أحد بوجوده تحت شرفتها ، واستبد بها هذا الشعور وملك عليها كل حواسها ، فقالت له :

- أيها السيد النبيل : انى أصدقك .. ولكنى مضطرة الى أن أرجوك مرة أخرى أن تغادر هذا المكان حتى لا يراك انسان ، لأنى أخشى أن يكون فى بقائك خطر على حياتك !

واشتد تأثير روميو ، وأحس أن حبها نفخ فى روحه قوة جديدة كبيرة ، فقال لها :

- لن أخشى أى خطر على حياتى مادام قلبك معى ومادام حبك يؤنسنى ، وانا هنا فى قربك أبعد من الخطر منى فى أى مكان آخر . على أنى أصارحك القول بأننى لم أكن يوما ما اشد رغبة فى الحياة منى الآن ، فقد كانت حياتى قبل ذلك قلما تهمنى ، أما وقد استجابت السماء لتوسلاتى ؛ وصار لى أن أواملى فى أن نتحد معا فى حياة واحدة مشتركة سعيدة . فليس هنا من يستطيع أن ينتزع منى هذه الحياة !

وأغرورقت بالدمع عينا جوليت ، واشتد خفقان قلبها ، ولكنها فى الوقت نفسه لم يسعها الا أن تبتسم اذ أحست فى هذه اللحظة أن فيضا من السعادة قد غمر كيانها كله ، وفتحت فمها لكى تتكلم ، لكنها لم تستطع لفرط تأثرها ، فبقيت ساكنة ترنو اليه والدموع تنحدر على خديها .

وحينئذ مد روميو يديه فأمسك بعض أغصان النباتات المتسلقة الممندة من شرفة جوليت حتى السور الذى يقف أدناه ، وفى أقل من دقيقة كان قد تسلق السور وتخطى حاجز الشرفة فصار بجانب الفتاة ، ثم ركع عند قدميها ورفع وجهه اليها وعيناه تفيضان بالدمع مما عرف من الحب .. ثم تناول يدها المرتجفة فى تلطف وترفق وطبع على أناملها قبلة طويلة حارة أودعها كل ما يختلج به قواده من حب صادق منزه مكين !

ولم ينبس هو ، ولا هى ، ببنت شفة .. ثم نهض وتخطى حاجز الشرفة الى السور حيث هبط الى مكانه الاول ، ثم لوح لها بيده مودعا وهو يبتسم فودعته بابتسامة أيضا ، وبقيت تتبعه بنظراتها حتى اختفى فى ثنيات الطريق !

قَبْلَةَ مَعَ النِّعَمِ

لم يتفق روميو وجولييت على موعد يلتقيان فيه من جديد ، فقد أذهلتها عن ذلك نشوتها بفرحة ذلك اللقاء الأول السعيد .

وأضحت هي يومها ساهمة مفكرة ، وكانت تشعر بأنها غريبة في قصرها بين آلهة وخدمها ، لكنها في الوقت نفسه تشعر بأنها أسعد كثيرا مما كانت ، وبأنها برغم الهمود الذي انتاب جسمها وأرخی مفاصلها ، لم تكن في يوم من الايام أقوى وأصح مما هي في ذلك اليوم .

وأضحت هو يومه في قصر أبيه معتكفا في غرفته لم يذق أى طعام . ولم يكذ يفهم شيئا مما وجه اليه من كلام ، فقد كان هناك بجسمه فقط ، أما قلبه وعقله فكانا محلقيْن هناك عند شرقة جولييت !

وفي أصيل ذلك اليوم أوت جولييت الى غرفتها ، وتمددت في سريرها ثم أطبقت جفنيها وأسلمتهما الى سنة من النوم ، تخللتها أحلام جميلة لطيفة . كان روميو هو المحور الذي تدور حوله كل وقائعها ومشاهداتها .

وحينما جاءت مرضعها أوزيبيا تدعوها الى العشاء ، اعتذرت بحاجتها الى النوم والراحة ، وصرفت متلطفة لكي يخلو لها وجه روميو في تلك الاحلام !

وانقضت ساعات وهي تتقلب في فراشها ، مستغرقة في أحلامها اللذيذة بين اليقظة والنوم ، ولم يكن ثمة ما يقطع عليها ما هي فيه الا دقائق ساعات المدينة من ساعة الى ساعة . فلما دقت هذه الساعة دقتين اثنتين بعد منتصف الليل ، أخذ قلبها تتسارع دقاته ، وساورها قلق شديد ، وشعرت فجأة بأنها تكاد تختنق لشدة الحر ، مع أن الجو في تلك الليلة كان غاية في الاعتدال !

ولم يسعها الا أن تنهض وتغادر فراشها متجهة الى النافذة المؤدية الى الشرفة ، ثم فتحتها وألقت نظرة على الأفق الممتد أمامها ، فأحست غدير قليل من الانتعاش ، وما لبثت أن اتجهت ببصرها على غير ارادة منها الى أدنى السور تحت الشرفة حيث كان روميو الحبيب يقف مناجيا إياها بالامس ، وما كادت تفعل حتى ندت من صدرها آهة خافتة ، وتسمرت في مكانها وعقدت الدهشة المزوجة بالفرحة لسانها ؛ وبقيت شففتها منفرجتين دون كلام ، وعيناها تحمقان ، وقلبيها يخفق خفقان الارتياح والحبور .

لقد جاء روميو في موعد الامس ، وما كاد يراها في الشرفة حتى سارع

فى رشاقتة المحببة فتسلىق السور ، وقبل أن تفيق من دهشتها كان راكمها .
أمامها ، وشفتاه على أناملها وعيناه تقولان لعينيها فى لحظة ما لا يستطيع
اللسان أن يلهم به فى أيام بل أعوام !

وبقى الحبيبان الشابان فترة غير قصيرة يرفرف عليهما الصمت
والسكون ، واختلطت أنفاسهما المتلاحقة بأنفاس النسيم المحمل بعبير
الزهور والرياحين ، وتقاطعت أشعة نظراتهما بأشعة القمر المطل عليهما
من عليائه فى جلال ووقار .

ثم تكلم روميو أخيرا ، فأخذ يروى لها هامسا كيف نبت هواها فى
فؤاده ، وكيف شغله منذ اللحظة الأولى عن كل شىء عداها ، وبدله بحياته
الأولى حياة أخرى هى شمسها وقمرها ، وهى ثمارها وزهورها ، ويقظتها
ونومها وأحلامها .

وكانت جوليت تصغى اليه بكل جوارحها ، ونظراتها وابتساماتها
تستزيده ، وتعلن سعادتها بما تسمع من همساته واعترافاته . فمضى
يشرح لها ما حدث منذ رآها لتلك المرة الأولى صبية تلهو فى حمايه
وصيفاتها بالنهر ، ثم حينما سحرته بجمالها واناقتها وغنائها ورقصها فى
الحفلة التى أقيمت بقصر أبيها ، وسعيه بعد ذلك للقائها فى شوق ولهفة
الى أن جمعتهم الصلاة فى الكنيسة فأدرك من نظرتها أنها تكن له مثلما
يكن لها ، ثم اعترف بين يديها بأنه سعى بعد ذلك فى سبيل حضورها
المباريات السنوية للمدينة ، وكان حضورها أكبر مشجع له على اظهار
أقصى ما فى استطاعته من براعة فى النزال ، لانه يؤثر الموت على أن تراه
منهزما غير جدير بالتقدير والاعجاب !

وكان واضحا أن جوليت قد أولت روميو كل تقديرها وثقتها ، وأنها
قد عرفتة حق معرفته ، فلم يبق هناك ما يمكن أن تخشاه من ناحيته .

وفى بعض الاحيان ، كان خيالها ينطلق محلقا فى أجواء المستقبل
المجهول ، فتتصور نفسها وقد حيل بينها وبين هذا الحبيب النبيل الجميل ،
بسبب ما بين أسرتيهما من خصومات وثورات . وخينئذ كانت تنتفض فى
وقفها كما ينتفض العصفور الذى انقض عليه أحد النسور ، ثم سرعان
ما تتبين أن ما روعها ليس سوى خيال ، وأن روميو ما زال راكمها بين يديها
فى شرفتها يناجيها ويشرح لها هواه وتقانيه فى سبيل سعادتهما
المشتركة ، فيذهب عنها الروع ، وتعود ابتسامتها المروحة الى شفتيها ؛
وتتابع همساته اللطيفة فى جذل وابتهاج ، بينما تحدث نفسها قائلة :

— كلا ! . ان الاقدار أرحم من أن تحول بينى وبين عينيهِ الصافيتين .
الوادعتين ، وأنفاسه الطاهرة التى تترجم عن قلبه الطيب الكبير !
وأخيرا ، أمسك روميو يد جوليت بين يديه ، ولعبت عيناه ببريق الحزم
والعزم والمضاء ، وقال لها :

— لقد خلقنا للحب ، وخلق الحب لنا . . ولم يبق ثمة أى شك فى
اتحاد قلبينا وروحينا . . فأنت يا جوليت أمنيته الكبرى فى حياتى ، وفى

بقائك بجانبى تركزت كل رغباتى وأحلامى وأنا الآن أشعر كل الشعور
بأنك تفهميننى وتثقين بى .. وتؤكد لى ذلك عينساك الصادقتان ، ويدك
التي ترتعش فى يدي الآن .

ثم رفع وجهه الى السماء الصافية الاديم ، وموكب القمر يسرى عبر
طريقه الفضى فى تؤدة وسكون ، وواصل كلامه فقال :

- أى جوليت الحبيبة .. أننى أشهد هذه السماء ذات الجلال ، وأشهد
القمر والكواكب المطة علينا ؛ والنسيم المرفرف بأجنحته حولنا ، وأشهد
الكون كله على انك وحدك متجه افكارى ومسبح خواطرى ، وغاية آمالى فى
الحياة ، ومن أجل ذلك أرجو أن تعاهدينى الآن على أن تكونى لى ، كما
عاهدتك على أن أكون لك ما حييت !

وسكت روميو ، وتعلقت عيناه بشفتى جوليت فى انتظار ما تقوله
ردا على هذا الطلب الصريح .

وابتسمت جوليت ، وبدأت فى نظراتها دلائل الارتياح والسرور ،
ولكنها بقيت ساكنة ، ولم ترد بأية كلمة .

فاستأنف هو كلامه فى لهجة كلها توسل وتضرع وقال لها :
- تكلمى يا جوليت ، قولى .. انك توافقين على أن يكون كل منا
للاخر قلبا وقالبا حتى الموت .. تكلمى يا حياتى .. ماذا تخشين ؟ ..
عاهدينى كما عاهدتك على أن نكون زوجين !

وهنا قربت جوليت وجهها من وجه روميو ، وقالت فى صوت يفيض
بالحب والحنان :

- روميو ! .. أيها الحبيب الحنون .. اننى أحبك الى أقصى ما يستطيع
انسان أن يحب .. وهل أدل على ذلك من موقفنا الآن .. ألا ترى أنى
منحك ثقة لا تقف عند حد ؟

ثم غصت بريقها ، وقالت وقد تهدج صوتها :

- أى روميو العزيز .. ان حبنى لك ليس يعدله الا اعجابى بخلالك
النبيلة ومزاياك الجميلة .. ولولا هذا ما كان لى أن أجازف بسمعتى
وكرامتى وكرامة أسرتى وأسارع الى لقاءك هذه الساعة أنت سليل آل
مونتيكى ، هنا فى شرفتى ، بقصر سيد آل كابليتى .

وسكتت جوليت مرة أخرى ، فتشبث روميو بيدها ، ونظر اليها
متوسلا وقال :

- تكلمى يا جوليت ، تكلمى .. اتقبلين أنت ابنة السيد كابليتى
أن تتزوجينى أنا .. أنا ابن السيد مونتيكى ؟
وهنا اختلجت يدها بين يديه ، وقالت له :

- نعم يا روميو .. أعاهدك على ألا أكون زوجة لاحد سواك ، وأرجو
أن تكون على يقين من أنى على استعداد لأن أتبعك الى أى مكان تشاء !

وهنا زحف روميو على ركبتيه وهو راكع أمامها ، ثم مد يديه وأمسك ذراعيها ، واجتذبتها اليه فى رفق وحنان ، وطبع على خدها قبلة خاطفة حارة ، ثم قال والنشوة تهزأ هزا :

ـ جوليت ٠٠ انك معبودتى ، وأنا عبدك منذ الآن !

وكان الفجر قد بدأت تباشيره تبدو فى الافق ، وأخذت العصافير تغرد على غصون الاشجار المحيطة بالقصر مستقبلة اليوم الجديد ؛ فتحفز روميو للانصراف ، ونهض من ركوعه فوقف أمام جوليت وابتسم لها مودعا ، فمدت يدها اليه مبتسمة هى الأخرى .

ومضت هنيئة وهما متصافحان ، وقد استغنيا بتبادل النظرات عن كل كلام . ثم لاحت له فكرة استحسنها فقال :

ـ ما رأيك يا جوليت ؟ ٠٠ ان السير برتولوميو ديلا سكالا رجل حازم صالح القلب ، وأكبر همه كما تعرفين أن تتخلص فيرونا خلال حكمه من المعارك التى تقيمها الخصومات والاحقاد ، فلماذا لا نضع حينا فى حمايته ؟ ٠٠ انه ولا شك سيباركه ويرى فى ذلك خير وسيلة الى بلوغ تلك الغاية التى يسعى اليها .

وشاع البشر فى وجهها ، وقالت له :

ـ هذه فكرة حسنة لا شك فى ذلك .

ووصل الى سمعهما فى هذه اللحظة وقع أقدام فى الطريق الممتد الى جوار القصر ، فتراجعا من الشرفة مبغوتين ، ثم سرعان ما تبين روميو أنها أقدام بعض العمال المبكرين الى الحقول القريبة فأبتسم واستأنف كلامه فقال لجوليت :

ـ اذن ٠٠ انت توافقين على أن أزور السيد ديلا سكالا فى قصره وأخاطبه فى هذا الأمر ؟

فلم تجبه أول الامر ، بل نظرت الى ضوء النهار الذى بدأ ينتشر ويغمر الافق ، ثم مرت بيدها على شعره ونظرت فى عينيه وقالت له ويداها تدفع كتفيه فى رفق وتلطف :

ـ روميو ! ٠٠ هيا ٠٠ ان الشمس آذنت بالشروق ٠٠ أنسيت ما قلته من أن حياتك لم تعد لها أهمية فى نظرك ؟ ٠٠ هيا ياروميو ٠٠ ولك بعدئذ أن تقابل الحاكم وتخاطبه باسمك واسمى بما تشاء .

فنظر اليها نظرة عميقة ضمنها كل ما يكنه لها قلبه ، ثم هبط من الشرفة الى السور فالطريق . والتفت اليها قبل أن ينصرف فرآها تنظر اليه من الشرفة وترسل اليه قبلة مع نسيم الصباح !

وساطة لم تترسم

خرج روميو من قصر أبيه فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ،
وقد ارتدى أفخر ما عنده من الثياب ، وأخذ يبحث الحطى فى طريقه الى
قصر حاكم المدينة .

واستقبله السيد برتو لوميو مرحبا به كل الترحيب ، وراح يكرر له
تهنئته الحارة على ما أحرز فى مباريات المدينة من انتصار رائع مبين .
وقال له روميو بعد أن شكره على تهنئته الرقيقة وحسن ترحيبه :

— ان الفضل الاكبر فى نجاح تلك المباريات انما يرجع الى حسن
عنايتكم ورعايتكم وشدة حرصكم على خير المدينة . وقد جئت الآن لأعرض
اقتراحا اعتقد ان تنفيذه يكسب المدينة كلها نصرا اكبر وأبقى وأليق بعهد
حكمكم العادل السعيد !

ثم أخذ روميو يقص على الحاكم الحازم الطيب القلب قصة الحب الذى
ربط بين قلبه وقلب جوليت ابنة السيد كابلليتى ، ثم تعاهدهما على
الزواج ، واتفاقهما على اللجوء إليه ليستخدم نفوذه ومكانته فى تمهيد
السبيل لاتمام هذا الزواج الشريف ، واتخاذة وسيلة الى صلح دائم بين
أسرتيهما ، وبذلك يرفرف السلام والسعادة على فيرونا ، ويتطهر جوها من
الاحقاد والمعارك التى تفسده من حين الى حين منذ عشرات السنين !

وأصغى السيد برتولوميو ديللا سكالا لاقتراح روميو فى اهتمام
كبير ، والتمعت عيناه ببريق البشر والاعجاب ، ثم قال له :

— انى أبارك حبكما الطاهر النبيل من كل قلبى ، وليس أحب الى من
أن أسعى جاهدا لاتمامه ، وانك لتعلم يا بنى كم سعيت وبذلت الجهود فى
سبيل التوفيق بين أسرتيكما الكبيرتين . وأؤكد لك أنى سأبادر بانتهاز
هذه الفرصة المباركة لمعاودة السعى فى هذا السبيل ، ولن أدر جهدا
يقربنا من غايته حتى نبلغها بتوفيق الله .

ولم يملك روميو عواطفه ازاء هذا الوعد الكريم ، فاغرورقت عيناه
بدموع الفرح والشكر ، وقال :

— ان فيرونا كلها تعلم علم اليقين انها فى تاريخها الطويل لم تظفر بحاكم
فى مثل عدالتكم وحزمكم ونبل مقاصدكم وحبكم الخير للجميع . وان أهلها
على اختلافهم ليتحدثون بهذا فى مجالسهم وخلواتهم . ومن أجل ذلك لم نجد
معلجا الا اليك ، وانى أسأل الله أن يوفق مسعاكم الحميد المبرور .

وابتسم له الحاكم شاكرا ، ثم قال له

— ليس يخفى عليك يا بنى العزيز ان الشروع فى أمر كهذا ذى شأن كبير ، لا بد أن تسبقه استعدادات خاصة وتمهيدات لدى كل من الاسرتين .
ومن أجل ذلك ينبغي لك ولحبيبتك أن تتذعرا بالصبر ، وان تنقطعا عن اللقاء علانية أو خفية الى أن يكتب لمساعدينا النجاح المنشود . فهل انتمما على استعداد للعمل بهذه النصيحة ؟

فظهر الارتباك فى وجه روميو ، ثم قال متلعثما :

— اننا نشكر لسيدى الحاكم كل الشكر نصيحته الغالية الثمينة ، ولا يخالجننا أدنى شك فى حكمته البالغة التى اقتضتها ، ولكن .. الا يمكن الاكتفاء بامتناعنا عن اللقاء علانية ؟

فابتسم السيد برتو لوميو ، وقال لروميو متلطفا : ان هذا الذى تبديه من الصدق والصراحة ، لما يزيدنى إعجابا بك وايمانا فى اخلاصك فى الحب . وأنا أعلم دقة موقفكما وصعوبة امتناعكما عن اللقاء مع ما يعتلج فى قلوبكما من الشوق الشديد . ولكن للضرورات أحكاما قاسية . وهذا الصبر المرير الذى أنصح لكما بالتزامه هو لصالحكما قبل كل شئ .

وسكت روميو مكتفيا بالتنهد ، وبدت الحيرة والحسرة فى نظراته ، فرثى الحاكم لحاله وسأله :

— ألسنت واثقا من حبها لك ، وبقائها على العهد ؟

فأجاب روميو على الفور قائلا :

— بلى ياسيدى ، أنا واثق من اخلاصها كل الثقة ، وقد تعاهدنا وأقسمنا لمنتظرون كل منا الآخر الى ما شاء الله .

فقال له الحاكم : « حسنا ! .. فى استطاعتكما اذن ان تعتصما بالصبر حتى يأذن الله بالفرج ، وأرجو أن يكون قريبا » .

فتنهد روميو مرة أخرى ، وأطرق هنيهة صامتا مفكرا ، ثم رفع رأسه وقال للحاكم :

— فلتكن مشيئة الله .. اننى اعدك يا سيدى بأن نحصر على اتباع نصيحتك وأن نكون عند حسن ظنك ، وأكرر لك الشكر باسم جولييت واسمى على عنايتك الكريمة بأمرنا ، وأسأل الله أن يجزيك عنا خير الجزاء

ثم نهض مستأذنا فى الانصراف ، فودعه الحاكم بمثل ما استقبله به من الاحتراف والتكريم

لم يستطع روميو صبورا على فراق جولييت ، فما وافت الساعة الثانية بعد منتصف الليلة التالية حتى كان فى طريقه الى شرفتها ، وكانت هى تتوقع قدومه فى تلك الساعة ، ففتحت النافذة المؤدية الى

الشرفة وأطلت منها على أدنى السور القائم فإذا هو هناك يلوح لها بيده .
ثم يتسلقه كعادته !

وعجبت لارتجاف يده وامتقاع وجهه وهو يلثم يدها ، ثم عرفت
السبب حين ركع بين يديها وراح يروى لها تفصيل مقابله حاكم المدينة
فى الصباح ، وما وعده به من السعى فى سبيل اتمام زواجهما على الا
إمتقيا علانية أو خفية حتى تظهر نتيجة ذلك السعى !

وارتجفت جوليت بدورها ، وقالت له ويدها تربت شعره :

— كيف يكون هذا ؟ .. كيف لا نلتقى ؟ والى متى ؟

فتنهده ونظر اليها فى حيرة قائلا :

— هذه ارادته ، وقد أكد لى أن ذلك لصالحنا قبل كل شيء ،
وأن فى استطاعتنا أن نصبر مادام كل منا واثقا من حب الآخر واخلاصه
وبقائه على العهد !

فقالت له : « لكننا لانلتقى الا خفية . فأى شيء فى هذا ؟ ! »

فقال : « حاولت أن أقنعه بذلك ، لكنه أصر على وجهة نظره ، ولم
يسعنى بعد أن لست عطفه علينا ورغبته الصادقة فى معاونتنا الا ان
أعده بأن نتبع نصيحته ! »

فتنهدت جوليت ونظرت اليه والحسرة تملأ جوانحها قائلة :
— أذن .. يجب أن نمتنع عن التلاقى بعد الآن . ما أقسى هذا أيها
الحبيب !

فتكلف روميو الابتسام تشجيعا لها وقال :

لقد وعدنى السيد برتولوميو ألا يطول انتظارنا .. فصبرا
يا حبيبتي وكل آت قريب !

فأطرقت هنيهة مفكرة فى الأمر ، ثم قالت له :

— لعل الحكمة فيما رآه الحاكم الطيب القلب ، وما دمت أنت قد
وعدته بأن نصبر ، فلا مفر من الصبر مهما يكن قاسيا مريرا !

ولما حان موعد انصرافه ، نهض متثاقلا وأمسك يدها بين يديه
بعض الوقت وهو ينظر فى عينيها صامتا ، ثم طبع على أناملها قبلة حارة
طويلة ، وتدحرجت بجانبها دمة لم يستطع امساكها ، فلم تستطع
جوليت امتلاك عواطفها المحتاجة وشهقت بالبكاء . ثم افترقا وكل منهما
يبتسم ليشجع الآخر بينما الدموع تملأ خديهما ، وقلباهما يلتهبان
خشية أن يطول الفراق !

رسم السيد برتولوميو ديللا سكالا خطة محكمة لانجاز ما وعد به
من السعى لانتمام زواج الحبيين روميو وجوليت

وبدا خطته بزيارة كل من السيد كابليتي والسيد مونتسكى عدة

مرات ، دون أن يصرح لأحد منهما بالفرض من زيارته ، مكتفيا بالإشارة إلى رغبته الشديدة في أن يتم اتحاد أهل فيرونا ، وأن يحل اللثام بينهم محل الخصام ، ليتسنى لهم التعاون على ما فيه صالحهم وصالح المدينة العام

وحرص خلال ذلك على محاولة اقناع كل من النبيلين بأن خير وسيلة إلى اتمام ذلك الاتحاد وإلى ضمان استقراره واستمراره هي أن ترتبط الأسرتان الكبيرتان في المدينة ، وهما أسرة كابلتي وأسرة مونتيكي ، برباط مقدس يبقى على مر الأيام ، ويمحو ذكريات الخصومة الماضية من سجل المستقبل !

وكان الحاكم الطيب القلب يتوقع أن تبدو من النبيلين أو أحدهما إشارة إلى استعداده لتوثيق العلاقات الودية بين الأسرتين عن طريق المصاهرة ، ولأسيما أن العادة جرت في ذلك العهد بأن تتصاهر الأسرات الكبيرة توثيقا للروابط بينها . فلما تكررت زيارته لهما دون أن يحدث ما توقعه ، دعاهما معا إلى مجلسه في قصره ذات يوم ، ثم طرق باب الأمر من جديد وقال لهما :

— ألا يوجد في أسرتكما فتى وفتاة يمكن أن يضحيا بقلبيهما في سبيل مصلحة الأسرتين ومصلحة المدينة كلها ، فنحتفل بزواجهما احتفالا عاما ، يكون فاتحة لعهد جديد سعيد ؟

ولم يجب أحد من عميـسـدى الأسرتين عن سؤال الحاكم ، مما اضطره إلى إعادة السؤال ، مع الإفاضة في بيان الفوائد الجليلة التي تترتب على مثل ذلك الزواج

وهنا قال السيد مونتيكي :

— ليس لي سوى ولد واحد ، ولكني على يقين من حرصه على تقاليد الأسرة وتشبثه بها ، فمن المستحيل أن يستجيب لهذه الرغبة ! وقال السيد كابلتي على أثر ذلك :

— اننى أقدر هذا الاقتراح كل التقدير ، غير أنى كما يعلم الجميع ليس لي غير ابنة واحدة ما زالت دون سن الزواج ، فلا سبيل إلى التفكير في زواجها إلا بعد سنين !

ولم يئأس السيد برتو لوميو برغم ذلك ، فاستمرت زيارته لكل من النبيلين ، ودعوته إياهما إلى مجلسه . ليلح عليهما في وجوب التفكير جديا في أمر ذلك الزواج لمصلحة الأسرتين والمدينة

وكان روميو يتردد إلى قصر الحاكم خلال ذلك ، ليقف منه على ما تم في الأمر ، ثم يغادر القصر قلقا حائرا كما دخله ، وكلما لاحظ الحاكم عليه شدة الملل والضجر ، شجعه قائلا :

— رويدك يا روميو ، وأصبر فكل آت قريب !

واستمرت الحال على هذا المنوال ثلاثة أشهر ، نفذ فيها صبر

روميو ، وأدركه اليأس من نجاح مساعي الحاكم ، فذهب لينقأله في قصره آخر مرة ويصرح له بأنه لم يعد يستطيع الانتظار أكثر من ذلك ، لكنه فوجئ بأن الحاكم طريح الفراش يعاني مرضا خطيرا منذ ثلاثة أيام . وعلم من الأطباء الذين دعوا من البندقية وكريمونا لمعالجته أن ليس هناك أمل في شفائه !

وفي اليوم التالي ، أذيع في المدينة نعي حاكمها الحازم الطيب القلب المحب للسلام ، فجزع لفقده كل أهلها على اختلافهم . ثم نقل جثمانه الى كنيسة سانت ماريا الأثرية ليلا في ضوء المشاعل لشدة الحر بالنهار ، ومشى خلف نعشه كل النبلاء والنبيلات ورجال الاكلروس وحملة الشموع والفنانون وجماهير لا يحصى عددها من الفقراء والمساكين . وكان الجميع يبكونه من قلوبهم ويذكرون عهده بكل خير

والحق أن هذا الحاكم كان على عكس معاصريه ، حكام العصور الوسطى ، يبغض الاستبداد والأنانية ، كما كان يفدق العطايا والهبات على كل قصاده من المحتاجين ، وقلما مضى يوم دون أن يتوجه الى الكنيسة للصلاة والتضرع الى الله أن يؤلف بين قلوب المتنازعين من أهل المدينة ، ويوفقهم الى ما فيه خيرهم واطمئنانهم وسعادتهم . ومن هنا حزن عليه النبلاء جميعا لتوخيهِ العدل في معاملتهم سواء أكانوا مثله من حزب الامبراطورين أم كانوا من حزب البابويين . وحزن عليه رجال الدين لشدة ورعه وتقواه ولأنه كان يحلهم ويحميهم من كل سوء وعدوان . كما حزنت عليه الطبقة الوسطى ومثلها الفقراء والضعفاء لما اشتهر به من حميد السجايا ، والعطف على المرضى والعاجزين عن العمل والبائسين ، والانتصاف لهم من الأقوياء الطفافة والأغنياء الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها الا في سبيل الترفيه عن أنفسهم وخدمهم وبعدهم الطوفان !

ولا شك في أن روميو وجولييت كانا أشد أهل فيرونا حزنا على حاكمها الذي تركزت آمالهما في مساعيه لأجلهما لدى أسرتهما الكبيرتين!

الفصل السادس

غيا سبب وعودة

روميو في البندقية

استولت الكتابة على روميو بعد خيبة آماله بموت السيد برتو لوميو سكالاً ، وانقطع بقية الصيف وطول الحريف عن ممارسة الألعاب الرياضية والاشتراك مع زملائه من النبلاء الشبان في مختلف المباريات التي كانت أهم ما يشغل أمثالهم في ذلك العصر

وجزع السيد مونتيكي لهذا التغير الفجائي في حياة ولده الوحيد ، وزاد في قلقه أن صحة روميو كانت تزداد سوءاً يوماً بعد يوم ، وأنه كثيراً ما يفقد القصر ليلاً ليقيم على وجهه في طرقات المدينة ولا يعود إلا في الصباح حيث يعتكف في غرفته ولا يكاد يفادها طول النهار ، عزوفاً عن الطعام والشراب

وظن الأب الحزين أول الأمر أن ابنه وقع في حبائل الشيطان واستطاعت إحدى غايبات المدينة أن تبعث بقلبه ولبه وتجره إلى الطريق غير المستقيم . ولكن هذا الظن ما لبث أن تبدد حين علم من خدم القصر وغيرهم أن روميو ما زال كالعهد به تقيماً تقيماً يؤدي الصلوات ويحرص كل الحرص على كرامته وكرامة أسرته ، وقد بلغ من طهره وتقواه أنه امتنع عن التردد إلى مجلس الفاتية روزالندا منذ أشهر ، بعد أن كان يمضي سهراته هناك مع من يضمهم مجلسها من النبلاء والفنانين !

على أن حالة روميو بقيت برغم ذلك تبعث القلق والحيرة والأسى في نفس أبيه . وبقي هذا يتساءل عن الأسباب التي أدت إلى ذلك التحول العجيب في طباع روميو ، دون أن يهتدي إلى جواب معقول وقالت له زوجته يوماً وقد لاحظت عليه شدة اهتمامه بهذا الأمر:

— لماذا تشغل نفسك بهذه الوسوس والأوهام ؟ . . أن روميو الآن في سن تسمح له بأن يتصرف بملء إرادته دون حاجة إلى وضعه تحت وصايتك ، ومن حقه أن يعيش كما يحلو له ، وما أظن أن هذه الحالة التي طرأت عليه إلا سحابة صيف تنقشع عما قريب

ثم سألته : « هل سمعت بأنه اجترح ذنباً أو اقترف خطيئة ؟ » . فلما أجابها بأنه لم يسمع شيئاً من ذلك قالت له محتدة :

— إذن . . دعه وشأنه ، وأرح نفسك من هذا العناء الذي لا طائل تحته !

فقال السيد مونتيكي وهو يهز رأسه حسرة وأسفاً :

— أهذا مبلغ حبك لوحيدنا واهتمامك بأمر مستقبله ؟

فقلت له : « ان الجاحك في التساؤل عن اسباب تغيره وانطوائه على نفسه ليس من الحكمة في شيء . وما دام ان هذه الحالة لم يترتب عليها الا عزوفه عن المبارزات والمباريات التي هي أشد خطرا على حياته ، فلا داعي البتة لكل هذا القلق والحزن »

وسكت السيد مونتيكي لا عن اقتناع برأى زوجته ، ولكن لعلمه بأنها لا يمكن أن تنزل عن وجهة نظرها الخاصة في أي شيء . ومضت الأيام بعد ذلك وهو لا يفتأ يفكر في أمر وحيدته ، ويجهد نفسه ليجاد مخرج له من تلك العزلة الكثيفة التي أثرت في صحته وأذبلت شبابه وجماله وكادت تسلكه في عداد المخبولين ، وان كانت والدته لا تراها كذلك

وأقبل الشتاء فهبت على فيرونا عواصف ثلجية شديدة ، واكتست الطرقات والأسطح بطبقة بيضاء ناصعة ، واضطر روميو الى العدول عن الجولات الليلية التي تعود القيام بها ، ولم يبرح غرفته طيلة الايام الثمانية التي استمر فيها اشتداد العاصفة

وتحسننت صحته قليلا خلال هذه الايام ، ولكن أباه بقي يتألم من أجله ، ولا يملك عواطفه فتبلل الدموع خديه ولحيته كلما وصلت الى سمعه في القصر ضجة الفتيان والفتيات الذين يمارسون رياضة الانزلاق على الجليد في الطرقات وكلهم في مرح وابتهاج ، في حين قبض روميو ولده الحبيب بجانب النار الموقدة للتدفئة في غرفته الخاصة وكأنه شيخ عجوز حطمته الايام وأوهنت قواه !

وكان يعلم ان مركوتشيو صديق مخلص لروميو ، وانه وحده الذي يزوره ويتحدث معه ، فخلا اليه يوما وأخذ يحاول استدراجه في الحديث للوقوف منه على ما عسى أن يكون عنده من معلومات تلقي الضوء على حالة روميو . ولكن مركوتشيو كان أذكى وأشد إخلاصا لصديقه انحميم من أن يكشف لأبيه عن شيء مما يعلمه من غرامه اليائس المضنى بجولييت ابنة السيد كابلليتي !

وزار السيد مونتيكي أخيرا أن يهيئ لروميو رحلة الى منطقة بعيدة من فيرونا ، لعسل في ذلك ما يعاونه على تجديد قواه ، ويرد اليه حياة المرح واللهو والنشاط ، ثم علم أن قافلة من تجار المدينة تتأهب للسفر الى البندقية في أوائل الربيع ، فصحب عزمه على اغتنام هذه الفرصة والحقاق روميو بالقافلة ، وسرعان ما خلا اليه وجلس يتحدث معه في شئون مختلفة ، ثم سأله فجأة :

— ألا تحب يا ولدي العزيز أن تقوم برحلة لطيفة الى البندقية ؟

فبدت الدهشة في وجه روميو ، وقال له :

— رحلة الى البندقية ؟ .. وما الداعي الى ذلك ؟

فقال السيد مونتيكي وهو يتسم متلطفًا :

— انها فرصة يتيح لك انتهازها أن تمتع بصرك بمناظر جديدة ،

وأن تختلط بأناس غير من تعودت الاختلاط بهم في فيرونا

فمط روميو شفته السفلى وقال :
- لست أشعر بحاجة الى شيء من ذلك !
فعاد أبوه يقول له :

- ان هذا لا يمنع أنك ستستفيد كثيرا من هذه الرحلة ، وليس يخفى عليك أن تغير الهواء وحده مما ينعش الجسم والنفس ، عدا ما في الاختلاط بالغرباء من تنمية لثروة التجارب والمعلومات المفيدة في الحياة فنظر روميو الى أبيه في شيء من الدهول ، ثم قال :
- هذا حق يا أبى العزيز ، ولكنى لا أعرف في البندقية أحدا ، لأننى لم أغادر فيرونا في رحلة بعيدة مثل هذه من قبل . ولهذا أرى أن بقائى هنا أكثر فائدة لى !

ولم يياس السيد مونتيكى ، ومضى يتلطف في الحديث مع روميو ، ويصف له بأسهاب فخامة مدينة البندقية ، وقنواتها التى تقوم مقسام الشوارع في المدن الاخرى وتحفل بزوارق العابرين والعابرات ، عدا ما بها من قصور جميلة والوان مختلفة للتسلية ، بوصفها مدينة نصف تركية ونصف اوروبية ، ولذلك يجتمع فيها أروع مناظر الشرق والغرب ولما رأى أن وصفه أهاج في نفس روميو حب الاستطلاع ، أخذ يضرب له على تلك النغمة ، ويلج على سماعه بمختلف المفريات والمشوقات ، الى أن ظهر الاقتناع في وجهه ، فاطرق هنيهة مفكرا ثم قال لأبيه :

- ان وصفك الجميل للبندقية جعلنى أشواق الى مشاهدتها ، وأنا أشكر لك يا أبى العزيز شدة اهتمامك بأمرى ورغبتك الكريمة في الترفيه عنى ، ولكنى أخشى ألا تحتمل صحتى المعتلة الآن مشاق الرحلة الى هناك ، ولهذا يحسن تأجيلها الى فرصة أخرى

واكتفى السيد مونتيكى بما وفق اليه من نجاح في تلك الجلسة ، وفارق روميو على أن يعاود الحديث معه في ذلك الشأن بعد حين

وكان روميو قد عاد الى جولاته الليلية التى لا يعلم أحد أين تمضى به خلالها قدماء ، وقد ذبلت وجنتاه ، وانطفا بريق عينيه ، وصار يعاف اللحوم التى تقسدم له على المائدة ، ولا يكاد يقبل على شيء من ألوان الشراب التى كان يميل اليها من قبل

وحمل هذا إياه على الالتجاء في محاولة اقناعه بالسفر الى البندقية مع القافلة الذاهبة اليها . وشد ما كان سروره واغتيباطه اذ تكللت محاولاته هذه بالنجاح ، فوافق روميو على القيام بتلك الرحلة ، وشرع يعد حقايب السفر ، ويختار من يأنس اليهم من الحراس والخدم لمصاحبتة فيها

وبعد أيام خرجت القافلة من فيرونا وبينها روميو ومرافقوه تحملهم ثلاث عربات ومعهم كل ما يحتاجون اليه من المعونات . ولم يكن يبدو عليه شيء من الابتهاج الذى غمر وجوه بقية أفراد القافلة والشبان الذين صحبوها للتنزه والاستجمام . ولكن إياه كان يرجو أن تزايله تلك الكآبة بعد أن يمنح في الرحلة وتقع عيناه على ما في البندقية من مظاهر جميلة رائعة !

خطيب غير مرغوب فيه

كان روميو وجولييت بعد موت حاكم فيرونا قد تحللا من العهد الذي ارتبطا به ازاء مساعيه لاتمام زواجهما ، فعادا الى التلاقى والمناجاة خفية فى شرفة غرفتها ، كما كان شأنهما قبل ذاك .

والواقع أن فشل تلك المساعى لم يزددهما الا تفانيا فى الحب والاخلاص ، ولكن مشكلتهما كانت تزداد تعقيدا بمضى الايام ، اذ لم يكن فى استطاعتهما أن يخرججا على تقاليد أسرتهما النبيلتين الكبيرتين ، وفى الوقت نفسه كان من المستحيل عليهما أن يستعينا على حل تلك المشكلة بآى انسان آخر بعد ذلك الحاكم الطيب القلب ، مخافة افتضاح أمرهما ، وما يترتب عليه من تفاقم العداوة بين أسرتهما وبين أعوان هذه وتلك من حزبى الامبراطورين والبابويين .

ومن هنا ساءت صحة الحبيبين ، وأخذ شبابهما الناصر فى الذبول ، وانطوى كل منهما على نفسه ، زاهدا فى الحياة وكل ما فيها .

وكانت السيدة كابلليتى أكثر عطفا وحنانا على جولييت من أبيها، بعكس روميو الذى كانت أمه أقل عطفا وحنانا عليه من أبيه . وعلى هذا كان لتبدل حال جولييت من الاشرار والمرح الى التجهم والانزواء أكبر الأثر فى نفس والدتها ، فأخذت تبذل كل ما فى وسعها لانقاذها من هذه الحالة المحزنة المؤلمة ، ولكن محاولاتها كلها لم تسفر عن أية نتيجة مرضية .

أما السيد كابلليتى ، فلم يعر تغير حال ابنته اهتماما كبيرا أول الامر ، وكان يقول لزوجته كلما خاطبته فى هذا الشأن :

— هذا مرض بسيط لا يلبث قليلا حتى يزول !

ولما طال مرض جولييت واستعصى علاجه ، جاء السيد كابلليتى الى زوجته يوما متهلل الوجه بأدى الغبطة وقال لها :

— لقد اهتديت الى أحسن علاج لمرض جولييت !

ثم أخذ يروى لها وهو يهتز طربا وحبورا أن جولييت قد خطبها اليه السيد « بياترو رونزولونى » صاحب الضياع والمزارع الواسعة فى ضواحي فيرونا وصاحب القصر الانيق القائم وسط تلك المزارع بين الحدائق الغناء الحافلة بالنباتات النادرة والازاهير الجميلة العاطرة وحظائر الحيل وأقفاص الوحوش العجيبة التى اصطادها فى رحلاته البعيدة الجريئة التى يتحدث عنها الجميع معجبين !

ولم يسع السيدة كابلتي ألا أن تتلقى نبأ هذه الخطبة السعيدة بالجلد والاعتباط والشكر لله على أن وفق ابنتها العزيزة الى زوج نبيل ترى مقدام !

وقامت من فورها فتوجهت الى غرفة جوليت حيث وجدت جالسة خلف النافذة المؤدية الى الشرفة ، وبصرها معلق بالافق في ذهول .

ثم ابتدرتها قائلة وهي لا تملك اخفاء سرورها :

— ما رأيك يا جوليت ، الا ترغبين في الزواج ؟

وبغيت الفتاة لهذا السؤال المفاجيء ونظرت الى أمها الطيبة القلب ، فوجدتها تتكلم جادة في هذا الامر الخطير ، ولم يخف عليها ما ارتسم على وجهها وفي نظراتها من البشر والابتهاج ، فلم تشأ أن تصدم عواطفها وقالت لها في حشمة وأدب :

— هذا شرف لم أحلم به بعد يا والدتي العزيزة !

وحينئذ جلست السيدة كابلتي بجانب ابنتها ، وأخذت تربت شعرها وكتفيتها بيدها قائلة :

— ان فتيات كثيرات أقل منك سنا قد تزوجن وانجبن بضعة أولاد ، ومن الخير لك اذن أن تفكرى في هذا الامر .

ثم ضحكت متلطفة وواصلت كلامها فقالت :

— على أنى أنصح لك منذ الآن بأن تكفى بانجاب ولدين اثنين فقط !

ولم يفلح تلمظ السيدة كابلتي وتفكها في ازالة الكتابة المرتسمة على جبين جوليت ، واكتفت الفتاة الحزينة المؤدبة بأن قالت :

— لا بأس من التفكير في هذا الامر يا أماء ، على أنى أرجو أن تتركى لي فسحة كافية من الوقت للتفكير ، وألا تخاطبينى في شأنه إلا بعد أن انتهى من ذلك وأصرح لك بأنى سئمت حياة العزوبة !

وكانت تتكلم بصوت مرتجف ينم عن الاعياء الشديد ، وقد وضعت يدها على قلبها الذى أثرت كوامن لواعجه فاشتد خفقانه . فلم تشأ والدتها أن تثقل عليها بالالاحاح فى ذلك الامر ، وتركتها لتستريح فى فراشها قليلا وهي تقول لها :

— لا تجزعى يا عزيزتى لمثل هذا المرض البسيط ، فعما قريب يتم شفاؤك وتستردين عافيتك كاملة غير منقوصة . وانى أبشرك منذ الآن بأن زواجك سيكون سعيدا موفقا كل السعادة والتوفيق !

وما كادت تغادر الغرفة حتى ارتمت جوليت فوق سريرها ، ثم وضعت وجهها بين كفيها وأخذت تجهش بالبكاء !

وكان روميو قد أرسل اليها من البندقية ثلاثة رسل : أحدهم

قسيس ، والثاني تاجر ، والثالث حامل سلاح . وقد اتصلوا بها خفية
بوساطة أوزيبيا مرضعها وابلغوها تحياته وتمنياته لها بالصحة والهناء ،
ولكن أحدا منهم لم ينبتها بموعده رجوعه الى فيرونا ، لأنه لم يكن قد حدد
هذا الموعد بعد . وأشد ما كانت تخشاه أن يكون أبوها قد دبر أمر زواجها
بأحد من نبلاء حزبه دون أن تعلم بذلك ، وهنا تضطر الى مواجهة اجراءات
الخطبة وما اليها قبل أن يعود روميو من البندقية ويبحث معها أمر هذه
المشكلة الجديدة !



كان السيد « بياترو رونزولوني » الذي خطب جوليت الى أبيها ،
في العقد الرابع من عمره ، له ذقن مربعة بارزة تسودها لحية كثيفة ، وقد
فقد إحدى عينيه في مبارزة قديمة ، لكنه يفخر بأنه يرى بعينه الواحدة
الباقية خيرا مما لو كان بمائة عين ، وكانت على خديه ثلاثة ثآليل دائمة ،
وبدا الصلع يكتسح شعر رأسه برغم معالجته بالغسل مرات في اليوم
ببول الخنازير طبقا لمشورة الأطباء والمجربين . ولهذا كان يضع على رأسه
دائما غطاء كبيرا من الفرو ، ويحرص على أن يبدو دائما في ثياب ثمينة ،
ويعطر جسمه بنوع نادر من المسك يحتفظ معه بشيء منه أينما حل أو
رحل !

وكان معروفا بجانب سعة أملاكه وحسن ادارته لها بأنه ذو طباع
ونزوات غريبة ، ولوع برحلات الصيد واقتناص الوحوش ، واقتناء
العبيد والكلاب .

ولم تمض أيام حتى خلت السيدة كابلليتى الى ابنتها جوليت مرة
أخرى وقالت لها :

— لقد تحدثت مع أبيك في شأن زواجك ، واستقر رأينا على أنه
خير وسيلة الى شفاذك مما أنت فيه .

ولم تستطع جوليت أن تخفى امتعاضها واضطرابها ، على أن والدتها
لم تدع لها فرصة لالتماس التأجيل ، وواصلت كلامها في لهجة حازمة
حاسمة برغم محاولتها تكلف اللين والملاطفة ، فقالت لها :

— ان مصلحتك يا ابنتي هي كل غايتنا ، وقد تقدم خطبتك نبيل
عظيم الثراء ، عرف بالشجاعة والاقدام . ودعانا جميعا الى حفلة كبيرة
يقيمها بقصره الريفى الجميل الذى سيكون قصرك فى المستقبل . وأنا
واثقة بأنك حين ترينه هناك فى هذه الحفلة ستعلنين قبولك خطبته فرحة
فخورة ، فليس ثمة أى شك فى أنك ستعجبين مثلنا بشمائله ومزاياه ،
وتلمسين أنه نعم الزوج الذى تجدين معه السعادة الدائمة والتعيم
المقيم !

وشعرت جوليت بأنها تكاد تختنق ، وبأن صدرها يئن ويغلى لشدة
ما يعتمل فيه من الألم والغىظ واليأس ، فأطرقت ساكتة ريثما خفت حدة
اضطرابها ، ثم نظرت الى والدتها متسائلة متعجبة وقالت لها :

— لماذا تتعجلون زواجي هكذا ؟! .. هل ترون أني جاوزت سن الشباب وتخشون ألا أجد زوجا مناسبا في الوقت المناسب ؟

فقالت لها أمها : « ليست المسألة بهذه الصورة التي تتخيلينها ، ولكنك تعلمين أنك واحدتنا ، وإن أكبر أمانينا أن تقرر أعيننا برؤيتك زوجة سعيدة وأما تنجب لنا أحفادا فنشرح بهم صدورنا . هذا إلى أن النبيل الذي أعرب عن رغبته في الزواج بك اجتمعت في شخصه مزايا قلما تجتمع لانستان ! »

فقالت جوليت : « اني لاشكر لك ولا بى شدة اهتمامكما بأمر مستقبلتي وسعادتي ، ولكن أليس من الجائز أن يكون ذلك النبيل الثرى الذي وقع عليه اختياركما لا يوافق باطنه ظاهره ؟ »

فحدجتها أمها بنظرة عتاب وقالت لها :

— كلا .. ان أباك يعرفه حق المعرفة ، وقد صرح لي بأنه إلى ثرائه الواسع وشجاعته الفائقة خليك بأن تفخر الأسرة بمصاهرتة . وهل تظنين أننا كنا نوافق على خطبته لك إلا بعد التحقق من أنه كفؤ لها ؟ »

وهنا أدركت جوليت أن ليس هناك فائدة من الجدل ، فسكتت على مضض وقلبها يذوب أسى ويأسا . وظنت أمها أن سكوتها دليل على قبولها ورضاها فنهضت وقبلتها مسرورة ، ثم تركتها موصية إياها بأن تستعد لحضور حفلة خطيبها العظيم ، ونبأها باسمه فلم تزدها به إلا جهلا ومقتا وتحقيرا !

وذهبت جوليت إلى قصر السيد بياترو ورونزولوني في ضواحي فيرونا ، في موكب كبير ضم والديها وجميع أفراد أسرة كابليتي وبعض المقربين من الأعوان والأنصار . كانت لفرط ذهولها وحيرتها وكآبتها لا تكاد تقوى على حفظ توازنها فوق الجواد الذي ركبت ، كما أنها كانت تجاهد بكل ما بقى لها من قوة حتى لا تغلبها غواطفها وتنفجر باكية أمام الحاضرين والحاضرات !

وكان القصر جميلا ، شيد على ربوة عالية ، وهو كله مبني بالقرميد الأحمر ، وتحيط به حدائق وبساتين أبدع تشسيقها وحفلت بكل أنواع الفاكهة وأشجار الزينة والورود والزهور ، وقد غرست في صفوف بعضها فوق بعض ، وتخللتها أحواض ونوافير من المرمر المزخرف المحلى بالتماثيل .

وخف صاحب القصر وكبار آله وأعوانه لاستقبال موكب آل كابليتي مبالغين في الترحيب بهم ، وطافوا بهم في الطريق إلى قاعة المأدبة بحدائق الزهور النادرة داخل القصر ، وحظائر الحيل والكلاب ، وأقفاص الأسود والفهود والذئبة والذئاب والثعالب والقروود والظباء والأيائل وغيرها من الوحوش والحيوانات التي اقتنصها صاحب القصر في رحلاته أو استوردها لحسابه من مختلف الأنحاء .

وكانت بعض هذه الأقفاص تحوى رجالا ونساء من الزنوج وغيرهم

من سكان الغابات والاحراش ومجاهل الهند والصين . فوقف السيد كابلليتى ومن معه طويلاً أمام هذه الاقفاص يتفرجون على من فيها ويتبادلون عبارات العجب والاعجاب .

وقالت جوليتت لنفسها بعد اذ رأت خطيبها المنتظر صاحب القصر ، ثم هؤلاء الأرقاء المساكين الجالسين القرفصاء فى تلك الاقفاص :

— لو أن هناك انصافاً فى هذه الدنيا لوضع ذلك النبيل الاعور الثقيل الظل فى قفص من هذه الاقفاص !

واستمر المدعوون بعد ذلك أكثر من ساعتين جالسين الى الموائد التى حفلت بألوان عديدة شهية من الطعام ، ومثلها من أجود أنواع الشراب ، وقد توفر على خدمتهم عشرات من الخدم والحشم ، وجلب لتسليتهم والترفيه عنهم عدد كبير من الحواة والمهرجين والبهلوانات والشعراء والمحدثين والموسيقين .

وحرص صاحب القصر على أن يختص السيد كابلليتى وزوجته وابنته بمزيد من تحياته ، فكانت عباراته تصل الى سمع جوليتت وكأنها فحيح الافاعي ، وحرصت من جانبها على أن تتحاشى نظراته اليها اذ شعرت منذ تلاقى نظراتهما لأول مرة بأن وجهه ليس فيه ما يغريها بغير صفعة . وعجبت من أمر أبويها كيف حسن فى عينيها مثل هذا المخلوق الغريب الهيئة والطباع ؟!

ولما انتهت المأدبة ، انتقل الحاضرون والحاضرات الى قاعة الاستقبال الفسيحة فاحتشدوا فيها ، وتوسطهم السيد كابلليتى وزوجته وابنته ، وأمامهم السيد بياترو رونزولونى صاحب القصر ، وكاهنه الخاص .

وفى حركة رتيبة وقور التفت السيد كابلليتى الى جوليتت وأشار بيده الى النبيل صاحب القصر وقال لها فى صوت أراد أن يكون وقوراً أيضاً :

— هذا هو الزوج الذى اخترناه لك . . ولا شك فى أنك ستحرصين دائماً على أن تكونى موضع حبه واحترامه . وبذلك تعيشان سعيدين باستمرار .

وطفح وجه السيد رونزولونى بالمسرة والزهو، بينما وقفت جوليتت شامخة الرأس معقدة الجبين وقالت لابيها :

— انى ليسرنى أن أكون خاضعة لإرادة أبى العزيز فى كل شيء ، كما أنى أقدر نصائبه الغالية الحكيمة كل التقدير ، ولكنى لم أفرغ من التفكير فى هذه المسألة ، وليس من الممكن أن أبت فيها برأى صحيح بمثل هذه السرعة .

وبغت السيد كابلليتى وزوجته ، وجحظت عيون المدعوين والمدعوات وفغروا أفواههم دهشة ، فى حين تصبب العرق بارداً من وجه السيد رونزولونى ثم انتفخت أوداجه فجأة وقال متظاهراً بعدم الاكتراث :

— حسنا يا سادة !! يمكن أن تستوضحوها رأيها فيما بعد !

وفى أثناء عودة آل كابلليتى الى قصرهم فاجأت جوليتت أباهما مرة أخرى اذ قالت له فى صراحة :

— أى زوج هذا الذى اخترتموه لى ؟ اننى أؤثر الموت على أن أتزوجه !
وجذب السيد كابلليتى عنان جواده غاضبا وحدث ابنته بنظرة قاسية ملتعبة ، وصاح بها قائلا وفى لهجته أثر افراطه فى الشراب :

— ماذا تقولين أيتها المتمردة ؟!!.. ألى هذا الحد تخالفين ارادتي ؟!!..
كلا !! اننى لا يمكن أن أسمع لك بهذا . ولا مناص لك من الازعان والخضوع !

واستمرت تشهق بالبكاء بينما أبوها يرغى ويزبد ويتهدد ويتوعد ،
حتى وصلوا الى القصر ، وهمت جوليتت بالصعود الى غرفتها ، ولكن
أمها استوقفتها أمام أبيها وقالت لها :

— لا ينبغي لك أن تغضبى أباك يا جوليتت ، تعالى يا بنيتى
العزيزة وكونى عند حسن ظننا بك وصرحى لابيک بأنك لا تخالفين ارادته
وأنك قد قبلت الزواج بذلك السيد العظيم !

وقالت لها جوليتت وهى ما زالت ترتعد :

— ان أبى يعلم يقينا أنى أحبه وأجله وأطيعه ، ولكنى لا أستطيع
أن اتزوج بأى أحد إلا بعد أن اشعر بأننى أحبه بكل قلبى . فاذا كنتم
مطمئنين الى أن ذلك السيد جدير بالحب ، فاتركوا لنا فسحة من الوقت
ليزداد كل منا معرفة بالآخر ، ثم ليكن الزواج بعد ذلك !

وعاد السيد كابلليتى يصرخ فى وجه جوليتت قائلا :

— كلا ! كلا ! محال أن أقبل منك أى محاولة للمطل والتسويق !
ان السيد رونزولونى زوج يشرف أسرتنا ، انه من أنصار البابا ، ولم
يتخل فى أى يوم عن مناصرة حزبنا بجهده وماله .

وعادت جوليتت الى البكاء والتوسل ، ولان لها قلب أمها فهمت
باقناع أبيها بتأجيل البت فى هذا الامر حتى الصباح ، غير أن الحمر كانت
قد لعبت برأسه وبلغت ثورته منتهاها فوقف يزمر ويدمدم ، ثم التفت
الى بعض الحراس الواقفين وصاح بهم قائلا وهو يشمر عن ذراعيه :

— هاتوا هذه البنت الوقحة المتمردة . هاتوها !! انى أشعر بأن
يدى تريد أن تضرب !! ان الله لم يكن راضيا عنا اذ قدر علينا أن تكون
هذه المجرمة كل ذريتنا !! هاتوها . هاتوها . ان لأسرة كابلليتى
العظيمة لن ترضى أبدا بأن تكون سمعتها وكرامتها مضغة فى الافواه !

ثم خطا متجها الى حيث كانت جوليتت واقفة تبكى وتنتحب ، ورفع
يده ليهوى بها على وجهها ، ولكن أمها أمسكت ذراعه بكل قوتها ، ثم

اجتذبتة الى اقصى القاعة وأجلسته على مقعد هناك حيث أخذت تهدىء من أعصابه الشائرة قائلة :

— هون عليك يا عزيزى ، ليس هناك قط ما يدعو الى مثل هذا ..
وأنا واثقة من أنها لن تلبث قليلا حتى تثوب الى رشدها وتعلن راضية
مغتبطة قبول ما أردته لها . فهيا .. امض الى غرفتك لتستريح ولا تعكر
دمك ، فلن يكون الا ما تريد !

وما زالت به حتى أنهضته ودفعت به الى خارج القاعة ، حيث مضى
الى غرفته وهو يسب ويلعن . ثم عادت الى جولييت فأخذت تهدىء نائرتها
وتجفف دموعها ولم تتركها حتى ذهب عنها الروع وصعدت الى غرفتها
وبدلت ثيابها ، ثم تمددت فى فراشها تلتمس الراحة والهدوء .

الحبيب يعود

لزمت جوليت غرفتها فى اليوم التالى محتجة كعادتها بأنها فى حاجة الى الراحة والاستجمام . وفيما كانت أمها تفكر فى وسيلة تقنعها بها وتحملها على قبول الزواج بالسيد رونزولونى ، جاءت أوزيبيا مريضاً جوليت وقالت لها :

— بالبواب يا سيدتى بائع جوال من البندقية معه سلع طريفة مختلفة يرغب فى عرضها .

وهمست السيدة كابلليتى بأن تأمر أوزيبيا بصرف ذلك البائع ، ثم لاح لها أن جوليت قد تجد تسليّة فى مشاهدة ما معه من السلع ، فأذنت فى ادخاله الى ساحة القصر . ثم سارعت الى غرفة جوليت ، واستطاعت أن تقنعها بالنزول معها للتفرج على السلع التى جاء بها ذلك البائع من البندقية .

والواقع أن اسم البندقية حيث يوجد روميو كان هو سر اقناع جوليت بمغادرة غرفتها . وهناك فى ساحة القصر التى تلى سورده الخارجى جلست هى وأمها على مقعدين من الحجر منحوتين فى السور نفسه ، وأخذ البائع البندقي — بعد أن حياهما فى اجلال — يخرج من صناديقه ما اشتملت عليه من السلع الثمينة النادرة . وكان ذا لحية كثيفة وقد لف رأسه وجبينه بقطعة من القماش . فلم يعد يبدو من وجهه الاسمر الذى لوحه وهج الشمس وهواء البحر الا عيناه الواسعتان الصافيتان ، وقد هاجت كوامن أشجان جوليت حين رأتهما ، اذ كانتا شبيهتين بعينى روميو ، ولهذا حرصت على ألا تعاود النظر اليهما ، وشغلت نفسها بمشاهدة السلع التى شرع البائع يعرضها ويثرثر على عادة أمثاله من الباعة مدلاً على جودتها وطرافتها بما عانى فى سبيل جلبها من الاخطار العديدة فى بحار الشمال المليئة بالقرصان، وفى الصحارى المحرقة والغابات ذات الوحوش والحيات، علاوة على عصافيت غير المؤمنين .

ثم اقترب البائع من جوليت خلال اشتغال والدتها بفحص بعض السلع ، وهمس اليها قائلاً :

— جوليت .. لا تنزعجى .. اننى أنا روميو !

ثم ابتسم وهو ينظر الى عينيها والدهشة مرتسمة فيهما ، وأومأ اليها محذراً ، وتراجع عقب ذلك الى حيث كانت والدتها تقلب سلعة فى يدها واستأنف حديثه عن جودة السلع ونفاستها ، قائلاً :

ـ معى أيضاً أحجار كريمة ولاآلىء نادرة مستخرجة من البحر الأسود
ومعى أسلحة وتحف وأدوات للزينة لا تقدر بمال .

ثم فتح آخر حقيبة معه وأخرج منها عقوداً وأقراطاً وحلياً مختلفة
الأحجام والألوان ، وأعطى السيدة كابلليتى بعضها فأخذت تتأملها فى
عجب و إعجاب ، بينما اقترب مرة أخرى من جوليت وناولها حلية عجيبة
قائلاً لها :

ـ ألم تعرفينى بعد ؟ لا تضطربى هكذا وتجلدى . . ها قد تلاقينا
أخيراً وسنتلاقى . . فلا تخشى أى شئ !

واستطاعت الفتاة أن تتغلب على دهشة المفاجأة ، وسرت فى جسمها
قوة خفية أنعشتها وردت عليها آمالها الزاهية ، فجلست أمام والدتها
متظاهرة بفحص السلع معها ، وأخذت تختلس النظر إليه وتبـادله
الابتسامات من حيث لا تشعر والدتها ، ثم قالت لها أخيراً :

ـ لا شك أنها سلع جميلة طريفة يا والدتى العزيزة ، وحبذا لو كان
عنده أقمشة وجواهر أخرى تصلح للعرس !

فنظرت إليها والدتها ، وقد سرها ما بدا من مرحها وانبساط أسرة
وجهها ، وتحدثتها عن العرس دون مضاضة . وقالت لها :

ـ نعم ، حبذا ذلك يا بنى لان ملابسك وحلاك يجب أن تكون كلها
غاية فى النفاسة ، لتليق بسليقة آل كابلليتى وزوجها النبيل الثرى
العظيم .

ثم التفتت الى روميو المتنكر فى زى البائع البندقى وقالت له :

ـ حسناً . . ان حظك سعيد ولا شك . وما دامت بضاعتك كلها
بهذه الجودة فسنشترى كثيراً منها ، وندفع الثمن الذى ترتضيه !

الفصل السابع

عمود الحبيبين

رحلة في ضوء البرق

استيقظت جولييت في منتصف الليلة التالية وهي تشعر بأنها استردت صحتها ونشاطها بعد أن عاد روميو ، وصار من الممكن أن يفكروا معا في وسيلة تخرجها من ذلك المأزق الذي وقعت فيه .

وفيما هي تفكر في هذا الأمر ، سمعت نغمة خفيفة على زجاج النافذة المؤدية الى الشرفة ، فحسبت أول الأمر أن فراشة كبيرة اصطدمت بالزجاج وهي تحاول الوصول الى ضوء المصباح . ولكنها تحققت بعد هنيهة ان هناك حصوات يقذف بها زجاج النافذة ، فخفت اليها وفتحتها وأطلت منها فلم تتبين عيناها شيئا في الظلام الذي كان سائدا حينذاك . وكادت تغلق النافذة لتعود الى فراشها لولا أن وصل الى سمعها في هذه اللحظة صوت يهمس باسمها عند أدنى السور ، وما لبثت قليلا حتى تحققت أنه صوت روميو ، وكان يقول لها :

— جولييت . . ارتدى ثوبا للخروج ، سنذهب الى شاطئ النهر لنحدث هناك . . أسامعة أنت ؟ هاك سلما من الحرير جئت به لتهدئي بواسطته ! . . هيا . . لا تترددى يا عزيزتى !

وشعرت الفتاة بشيء ناعم استقر على ذراعيها المستندتين الى حاجز الشرفة ، فأجفلت ثم سمعت روميو يواصل همسه لها قائلا :

— هل وصل طرف السلم اليك ؟ . . ثبتيه في الحاجز ، وسألتقاك هنا بين ذراعى !

وبعد قليل كانت جولييت قد ارتدت ثوبا ثقيلا قاتما ، وأخذت تهبط من الشرفة على درجات السلم الحريري وقلبها يخفق بشدة لفرط تأثرها . ولم تمض دقائق حتى كانت بين ذراعى روميو الذي تلقاها وحملها على صدره في رفق وحنان وهي مسندة رأسها الى كتفه . ثم انطلقا الى النهر القائم وراء الحقل المحيط بالقصر ، وقد ساد الظلام والسكون ، فلم يكن يسمع الا وقع خطاهما على الأعشاب ، وتهامسهما الذي اختلط بهمساته النسيم .

وقالت له ويدها في يده :

— ما بال السماء قد خلت من النجوم ؟ . . انى خائفة من هذا الظلام !

فأجابها وهو يداعب بيده خدعها وشعرها :

ان النجوم باقية هناك ، ونورها لا ينطفىء أبدا . . ولكن السحب

تجيبها الآن وستزول هذه السحب السوداء فتعود النجوم الى الظهور !
وعثرت في طريقها عثرة خفيفة ، فسارع روميو الى تطويقها
بساعديه ليقيّل عثرتها ، وواصل كلامه فقال :

— لا تخافى شيئا .. ان الكون كله يبدو كأنما خلق لنا وحدنا ..
فقد هجع الناس والطير والحيوانات ، وسكن كل شيء الا قلبانا !

وبدأت قطرات من المطر تتساقط على وجهيهما المتلاصقين ، فقال
روميو :

— ها قد بدأت السحب تفرغ حمولتها .. اطمئنى يا حبيبتي .. ان
هناك فوق هذه السماء الزرقاء التى تدور حولنا سماء بللورية ناصعة
تعيش فيها الملائكة والارواح السعيدة بمنأى عن الفيوم والصواعق
والأمطار .. ومن فوق هذه السماء سماء أعلى وأعز وأكرم لأنها سماء
الله !

وكان المطر قد ازداد ، واشتد الهواء ، وورعدت السماء وبرقت ،
فشعر روميو بارتجاف جولييت وقلقها ، فخلع معطفه وادخلها معه فيه ،
فازدادا التصاقا . ثم لاحت لهما فى ضوء البرق شجرة كبيرة قريبة
فاتجها اليها صامتين ، وهناك وقفا مستندين الى جذعها وجسماهما
متلاصقان داخل المعطف السميك وقد طوق خصرها بذراعيه وطوقت عنقه
بذراعيها ، وبقيتا هكذا صامتتين وقلباهما يتكلمان ، وقد ذهلا عن الرعد
والبرق والمطر والبرد ، ولم يفيقا من ذهولهما الا وقد سكنت العاصفة
وانقطع المطر وانقشعت السحب ولاحت أضواء الفجر !

وهنا غادرا مخبأهما الأمين السعيد ، وأخذا يحثان الخطى عائدين الى
القصر . وهو يعاونها على اجتياز العقبات التى خلفتها الأمطار فى الطريق .
ثم آثر أن يحملها على صدره ليسارع الى العودة بها قبل انتشار ضوء
الصباح . فاستسلمت له مطمئنة مغتبطة . وانطلق هو بحمله فى خفة
ونشاط حتى بلغ سور القصر تحت شرفتها ، فأعانها على الصعود اليها
بوساطة سلمه الحريري بعد أن صعد هو قبلها ليتلقاها . ثم وقف فى
الشرفة بعد فك طرف السلم المثبت بالحاجز وتمنطق به تحت معطفه ،
الى أن دخلت غرفتها وأغلقت زجاج نافذتها مبتسمة له . وقبل أن يفترقا ،
اقترب كل منهما بوجهه من زجاج النافذة والصق به شفثيه حيث تبادل
قبلة طويلة حادة من وراء الزجاج !

وكانت هى المرة الأولى التى التقت فيها شفتا روميو وجولييت !

وبقيت جولييت فى غرفتها حتى الضحى ، وهى مازالت ثملة
بنشوة السعادة التى غمرتها خلال نزهتها الليلية فى ضوء البرق مع
روميو الحبيب

وكانت تحدث نفسها قائلة :

— ترى هل يعود فى الليلة القادمة ؟

واستمرت مستغرقة في مثل هذا الخيال ، حتى فتح باب الغرفة ودخلت أوزيبيا مرضعها الحنون وقالت لها ووجهها يفيض بالبشر والابتهاج :

— سيدتي .. لقد عاد تاجر الأمس ومعه السلع الجديدة التي وعد بإحضارها . وقد أمرت سيدتي والدتك بأن أجيء به إليك هنا لكي تنتقي من سلعه ماشئت استعدادا لزواجك السعيد !

وماكادت جوليت تصدق سمعها ، ولكن أوزيبيا كانت تتكلم بإدوية الجد ، وأردفت قائلة :

— انه الآن واقف بالباب في انتظار الاذن له في التشرف بالمشول بين يديك !

ولم تنبس جوليت بكلمة ، واكتفت بأن أومأت موافقة على ادخال البائع ، وقد لاح لها أن روميو أرسل شخصا آخر بدلا منه . وبقيت عيناها معلقتين بالباب حتى دخل البائع القادم ، فاذا هو روميو نفسه ، وعلى وجهه ابتسامة حلوة لطيفة كتلك التي ارتسمت على شفثيه حين تبادلوا قبلة الوداع منذ ساعات من وراء الزجاج !

وقال لها في صوت عذب حنون :

— هل أدهشك اني اشتقت اليك فجئت أطفئ نار شوقي بنظرة اليك ؟

وعاودتها الدهشة لجرائه وصراحته فابتسم وقال لها :

— اطمئني يا عزيزتي ، اننا وحدنا هنا ، وقد انصرفت أوزيبيا الطيبة القلب لتشرف على أعمال الخدم المشغولين بغسل الملابس وتنظيم الأثاث استعدادا لزواجك السعيد من السيد رونزولوني !

فوضعت يدها على قلبها ، وزفرت زفرة حارة ، وقالت له :

— أتعرفه يا روميو ؟

فابتسم مرة أخرى وقال :

— كيف لا أعرفه ؟ وهل يخفى القمر يا جوليت ؟ .. ان أهل فيرونا لا حديث لهم الا عن حياة البذخ واللهو التي يحيهاها في قصره الريفى البديع ، وحيواناته ووحوشه وعبيده من مختلف الاجناس والألوان !

ثم ضحك ساخرا واقترب من جوليت فوضع يده على كتفها وقال وهو يتأمل عينيها الصافيتين :

— ما أروع هاتين العينين ! .. ولكن أين هما على روعتهما من تلك

العين الواحدة التى يؤكد السيد رونزولونى انه يرى بها كما لو كانت
مائة عين ؟!

وهنا همست جوليت قائلة له :

— روميو .. حبيبى روميو .. اننى لك أنت وحدك ، كما أنك
لى وحدى ، ولن يستطيع أحد أن يفرق بين قلوبنا اللذين وحدهما
حبنا المتبادل المكين .. بالله لا تجر على لسانك ذكر ذلك المخلوق الفظ
الغليظ القلب ، ودعنا الآن نستمع بهذا اللقاء الجميل السعيد .

فتناول روميو يدها بين يديه ووضعها على قلبه وقال لها :

— ثقى يا عزيزتى بأن ذلك الأحق البغض لن ينال منك شعرة
واحدة مادمت على قيد الحياة ، ولئن كانت احدى عينيه قد ذهبت
فى مبارزة قديمة كما يقال ، فان حياته كلها من السهل جدا أن تذهب
بها مبارزة أخرى !

ففزعت جوليت وقالت له :

— مبارزة ؟ .. أليست هناك وسيلة أخرى أسلم عاقبة ؟

فضغط روميو يدها بقوة من حيث لا يشعر وقال :

— ماذا تخافين ؟ .. ان كل ما يدعيه من البراعة فى المبارزة لن
يلبث دقيقة حتى يتبخر فى ضوء الحقيقة الواقعة ، حينما يتلاقى
سيفانا !

وارتعدت الفتاة فى قبضته ، وبدا التوسل فى نظراتها وقالت :

— كلا ياروميو .. انك أعقل واكيس من أن تقدم على ذلك ..
يجب أن يبقى حبنا سرا فيما بيننا حتى تحين الفرصة المناسبة
لإعلانه .. هل نسيت ماقلته أمس عن تلك السحب السوداء التى
حجبت نجوم السماء ؟ ألم تنقشع السحب ويعود النور مبدا ماسدا
الكون من ظلام ؟ .. ان هذه المحنة التى نعانيها بسبب ما بين أورتينا
من عدااء لن تبقى طويلا ، ان قلبى ليحدثنى صادقا بأنها توشيك ان
تزول ، وحينئذ يتم اتحادنا فى العلن كما تم فى الخفاء !

فتنهذ روميو ، وسكت هنيهة وقد بدا فى وجهه القلق والحيرة،
ثم انبسطت أسارير وجهه فجأة وقال مبتسما :

— حسنا يا جوليت .. لن الجأ الى القوة لاقصاء رونزولونى
الاعور من طريقنا ، مادامت هذه ارادتك ! .. انك لحكيمة عاقلة مثلما
انك جميلة ظريفة . وقد يدرك باللين والحيلة ما ليس يدرك بالقوة
والاقدام !

عجب مركوتشيو اذ جاء روميو اليه ذات مساء ليدعوه الى
تمضية السهرة معا ، وكان عجبه أشد حين أردف روميو فقال :

— ليس لدى أى فكرة عن سهرة معينة . انما يهمنى ان نجلس
معا بعض الوقت لنحدث ونتشاور !

ثم انفجر مركوتشيو ضاحكا ، وقال له وهو يربت كتفيه :
— أى حديث لديك أيها الفتى العاشق المستهام ؟
فقال روميو جادا :

— يجب ان نجد فى اقرب وقت ممكن وسيلة تكفل ان تمحى فكرة
الزواج بجولييت من ذهن ذلك النبيل الأعور الثقيل !
فقال له مركوتشيو :

— لا شىء غير الموت يستطيع ان يجعله يسلو احلامه بها ! ..
فهز روميو كتفيه ساخرا وقال :

— نريد وسيلة أخرى غير الموت .. هذه ارادة جولييت
نفسها !

فقال له مركوتشيو متعجبا :

— جولييت هى التى لا تريد له الموت ؟! .. اذن ينبغى ان نبحث
عن وسيلة تمحو فكرة الزواج من ذهنها هى أيضا !

فعقص روميو حاجبيه وحجج مركوتشيو بنظرة قاسية وقال له :

— كلا يامركوتشيو .. كلا ! .. ان جولييت فتاة نبيلة القلب
صادقة الحب وفية بالعهد ، ولكنها كذلك ذات حكمة وعقل ولا تريد
ان تثار الأقاويل حول اسمها واسم أسرتها !

فأومأ مركوتشيو برأسه مستحسنا ، ثم اطرق بعض الوقت
مفكرا ، ورفع رأسه أخيرا وقال لروميو :

— هون عليك أيها العزيز ، ان صديقك مركوتشيو عنده الحسل
الحاسم لهذه المشكلة ، كعهدك به فى مشكلات سابقة .

وشاع السرور فى وجه روميو ، وربت كتف صديقه وسأله فى
لهفة :

— ماذا لديك من حل لهذه المشكلة ؟

فضحك مركوتشيو وقال له وهو يلاطفه :

— لن أخبرك به الا غدا ، بعد ان أفرغ من دراسته !

فسكت روميو قليلا ، ثم هز رأسه مستسلما وقال :

— لا بأس بذلك ، الى الملتقى مساء غد أيها العزيز

وغادر منزل صديقه صامتا ، ومضى الى قصر أبيه حيث أمضى

ساعات في غرفته بين نائم ويقظان . وبعد ساعة من انتصاف الليل غادر القصر ، موليا وجهه شطر قصر آل كابلتي ، متمنقا تحت معطفه بسلمه الحريري الذي صار من أحب الأشياء لديه منذ وطئت درجاته حبيبة القلب جوليت !

وفي الليلة التالية ، ذهب روميو بسلمه أيضا الى قصر آل كابلتي ، وما كاد يستقر به مجلسه بجانب جوليت في شرفة غرفتها حتى ابتدرها قائلا :

— لقد تخلصنا منه .. من رونزولوني !

فأخذتها البغلة وبقيت تحملق فيه صامته بعض الوقت ، فابتسم وقال :

— لقد وعدتك ألا نستعمل العنف في التخلص منه ، ومازلت عند وعدي !

فسأله متعجبة : « اذن .. ماذا حدث ؟ »

قال : « ستعرفين كل شيء عما قليل »

ولم تمض أيام حتى كان السيد رونزولوني قد طرح وراءه ظهريا امر خطبة جوليت ، ولم يستطع أبوها أن يجتمع به بعد ذلك ليخاطبه في هذا الأمر ، بل ان السيد كابليني وزوجته صارا يبغضانه ويزدرياه بقدر ماكانا يميلان اليه ويفخران بمصاهرته . وبعد أن كانا يحاولان ارغام جوليت على قبول الزواج به ، انعكست الآية فصارت هي تلح في سؤالهما متى يتم هذا الزواج متظاهرة برغبتها في التعجيل باتمامه ، في حين يلتزمان هما شتى المعاذير للمماطلة والتسويف ، ويقرعان سن الندم على أن اغترا بظاهر ذلك الرقيق الخبيث ، شاكرين لله أن كشف لهما دناءته وحقارة نفسه واستهتاره بقواعد الشرف والكرامة ، قبل أن يتم ذلك الزواج !

أما سر هذا التبدل والانقلاب فكان ماعرفه الخاص والعام في فيرونا وضواحيها من توطد العلاقات الغرامية بين السيد رونزولوني والغانية روزالندا ، حتى صارا لا يكادان يفترقان ليل نهار !

ولم تكن بينهما معرفة سابقة ، ولكن مركوتشيو الداهية كان هو الذي سعى في ذلك خفية ، اذ كلف صديقا له كتابة خطابين : أحدهما باسم روزالندا الى رونزولوني تعترف فيه بأنها أعجبت به كل الاعجاب لما سمعت عن لطفه وظرفه ومزاياه العديدة ، وتعرب عن شدة رغبتها في الاجتماع به في أي مكان ، والخطاب الآخر باسم رونزولوني الى روزالندا يبلغها فيه اعجابه بجمالها الساخر الجذاب ومجالسها الطريفة الممتعة ، ويبثها وجده وشوقه الى تلاقيهما في أي مكان !

ولم ينس مركوتشيو أن يرفق الخطاب الأول بزهرة جميلة عاطرة ، وأن يطوى الخطاب الآخر على جوهرة لطيفة نادرة .

خطيب جديد

خلا السيد كابلتي الى زوجته في قصرهما يوما للمباحثة في أمر جوليت وزواجها ، فقالت له :

— لقد جنينا على ابنتنا العزيزة بذلك الاختيار غير الموفق ، ولاشك أن المرض الذي عاودها أخيرا يرجع الى خيبة آمالنا جميعا في ذلك النبيل الخبيث النفس . وعلينا أن نبحث لها عن زوج آخر والا ساءت العاقبة !

فقال لها : « الحق معك ، ولا سيما أن جوليت الآن قد بلغت السابعة عشرة ، وفي هذه السن ينحصر تفكير الفتيات عادة في أمر «الزواج»

— ثم سكت قليلا وهو يعث بلحيته مفكرا ، واستأنف كلامه فقال :

— سمعت أن الكونت لودرون الشاب تبحث له أسرته عن زوجة لائقة ليعيش واياها عيشة فاضلة هادئة هائسة ، بدلا من انغماسه في حياة اللهو والملذات مع لذاته وأقرانه من الشبان . فما رأيك في اختياره زوجا لجوليت ؟

فقالت السيدة كابلتي :

— قبل أن نخطو أي خطوة في هذا السبيل ، يجب أن نبحث بدقة وعناية حتى نتحقق أن هذا الكونت لن يخيب هو الآخر آمالنا فيه !

فقال لها : « لاشك في أنه شاب جميل ثري ظريف مهذب ، وصحيح أن أسرته ليست من حزب البابويين ولكنها تميل إلينا ولم يحدث أن اصطدمت بأسرتنا في خصومة قط ! »

فقالت : « إذن .. لا بأس من اختياره زوجا لابنتنا ، وأرجو أن يكون التوفيق رائدنا في هذه المرة ! »

وفوجئت جوليت بوالدتها تخلو إليها على أثر ذلك لتسألها :

— مارأيك يا جوليت ؟ .. اليس من المستحسن أن تفكرى من جديد في أمر الزواج ؟ .. أن الزوج الذي اخترناه لك في هذه المرة يختلف كل الاختلاف عن ذلك النبيل الريفى الدنيء الدميم ، فهو بجانب ثرائه ونبل أسرته شاب وسيم مهذب و ...

فقطعت جوليت كلام والدتها وقالت لها في امتعاض شديد :

— لقد قررت ألا أتزوج !

وعبثا حاولت والدتها أن ترحزحها عن رأيها هذا قيد شعرة ،
ولما علم بذلك أبوها غضب غضبا شديدا ودعاها اليه حيث قال لها :
محتدا :

— ماهذا يا جوليت ؟ .. ألم توافقي على الزواج منذ حين ؟ ..
لماذا اذا ترفضينه الآن ؟

فقالت له في لهجة مؤدبة وصوت خفيض :

— ان الحديث عن الزواج يملأ نفسى حسرة ومرضاً . وخير لى
من الزواج الآن أن أقذف بنفسى من أعلى برج القصر ، أو أن أهيم
على وجهى فى الغابات والصحارى المليئة بالوحوش وقطاع الطرق ، بل
خير لى من ذلك ان ادفن بنفسى فى جب مظلم تتكدس فيه الثعابين
والحيات ، أو أن ادفن حية فى كفن واحد مع أشلاء قتيل !

ثم انفجرت على اثر ذلك باكية ، فأخذت أمها الرافة بها وقالت
لزوجها :

— فلنؤجل الحديث فى ذلك قليلا ، ان جوليت مازالت مريضة
متأثرة مما حدث فى المرة الماضية .

وتركهما السيد كابليتى وهو يزمجر ثائرا ويتهدد جوليت
قائلا :

— يجب أن تفكرى فى هذا الأمر وتبتى فيه فى أقرب وقت ، والا
فاستعدى منذ الآن لدخول الدير لتعيشى هناك مع الراهبات !

وبقيت السيدة كابليتى ثمانية أيام كاملة وهى تلح على اذنى
جوليت فى أمر الزواج محاولة اقناعها بالقبول .

ولم تكن جوليت قد علمت شيئا عن الخطيب الجديد الذى وقع
عليه اختيار أبويها الى ان قالت لها أمها يوما وهى تحدثها فى هذا
الشان :

— ثقى بأننا لانريد الا سعادتك والاطمئنان الى مستقبلك
يابنيتى . وهذا ماجعلنا فى هذه المرة ندقق فى اختيار الزوج اللائق
بك . وفى استطاعتك أن تدركى أى تضحية قدمها أبوك لاجلك اذا
علمت بأن خطيبك الجديد ينتمى الى أسرة ليست من حزبنا ، ولكنه
شاب وسيم وبطل رياضى عظيم وقد أعرب عن شدة إعجابه بك .
وتقديره مزايالك ، واستعداده لأن يكون بمثابة عبد مملوك لك ، يختصك
بحبه واحترامه حتى آخر رفق له .

وخفق قلب جوليت ، وتضرجت وجنتاها الذابلتان بالحمرة ،
اذ تبينت من كلام أمها ان ذلك الخطيب الجديد ليس سوى روميو .

ولم تتمالك عواطفها من فرط سرورها بهذه البشرى المفاجئة ، فارتمت على أمها وراحت تعانقها وتقبلها باكية قائلة :

— اننى عاجزة عن تقدير عنايتكما الكريمة بى ، وماكان لى أن أعصى لكما أمرا ، وأسأل الله أن يجزيكما عنى خير الجزاء .

وسارعت السيدة كابليتى الى زوجها تزف اليه بشرى اقتناع جوليت وقبولها الزواج بالخطيب الجديد

وكان سروره هو الآخر عظيما ، ودعا اليه جوليت حيث استقبلهما هاشا باشا وابتدرها قائلا :

— أرايت يابنية كيف أننا لا ندخر جهدا أو نحجم عن تضحية فى سبيل سعادتك ومرضاتك ؟ .. اننى اعتقد اعتقادا لاشك فيه أن أى فرد من حزبنا يعدل عشرة أو أكثر من الأحزاب الأخرى، ولكنى مع ذلك قبلت أن أزوجه بشاب ليس من حزبنا ، لأنه يحبك مخلصا وجدير بأن يجعلك سعيدة معه .

فاغرورقت عيناها بالدموع ، وقالت وجسمها كله ينتفض لفرط تأثرها :

— شكرا لك يا أبى . لقد كنت موقنة بأن الله لن يتخلى عنى ، وأن أسرتنا وأسرّة مونتيكى لا بد من أن تتصالحا ويحل الوئام والرفاق بينهما محل العداوة والبغضاء !

واخذ العجب جوليت ، إذ رأت وجه أبيها قد تجهم فجأة ، والتمعت عيناه ببريق الغضب ، وصاح بها قائلا :

— مالنا وآل مونتيكى ؟ .. ما هذا الهديان ؟ .. أحسبت أن خطيبك الجديد من أولئك الأوغاد الاندال أنصار امبراطور الشمال ؟ . كلا .. كلا ! .. ماكنت لأرضى لك ولا لحادمة عندك أن تكون زوجة لواحد من أولئك الأعداء الألداء الأذنياء .. ان خطيبك المختار ينتمى الى أسرة لودرون ، لا الى تلك الأسرة الحقيرة !

ولم تستطع الفتاة المسكينة أن تسمع بقية ثرثرة أبيها ، فقد أغمى عليها وخرت ساقطة على الأرض بين يديه ، من هول تلك المفارقة القاسية ، وانهيار آمالها فجأة بعد أن حسبت أنها تحققت أو كادت تتحقق بعد طول الانتظار !

وظن أبواها أن اغماءها كان نتيجة لفرط سرورها واغتيابها بنبا الزواج الجديد ، وماكادت تفيق من اغماؤها حتى انطلق أبوها يسرد على مسامعها مزايا الخطيب الجديد ، فى حين كانت هى شاردة الذهن ، موجعة القلب لا تعي شيئا مما يقول . ثم صحبتها أمها حتى أوصلتها الى غرفتها وتركتها هناك لتستريح بعد أن كررت لها التهنة وأطيب التمنيات !

كشف سر الحبيبين

لم يكن تيبالدو ابن عم جوليت قد رآها منذ بضعة أشهر ، فقد شغل عنها باندفاعه في مغامرات غرامية متتالية لم تدع لديه وقتا لمقابلتها أو التفكير في أمرها . ثم حدث أن انتهت مغامرته الأخيرة بما اضطره إلى الزهد في حياة المغامرات والعودة إلى التفكير في ابنة عمه الجميلة اللطيفة التي طالما سعد بنظراتها وابتساماتها وأحاديثها

وكان الحادث الذي اضطره إلى ذلك أن زوج المرأة التي اختارها بطله لمغامرته الأخيرة كان عملاقا غيورا قوى العضلات ، فما كاد يعلم بأنه يحوم حول زوجته حتى ترصد له وانهال عليه باللكمات والصفعات حتى كاد يقتله !

ولاحظ تيبالدو أصفرار وجه جوليت وشدة اكتئابها ، وما أن علم منها بأن أبويها يريدان إرغامها على الزواج بالكونت لودرون ، حتى ثارت الغيرة في صدره وقال لها :

— كيف يكون هذا ؟.. كلا يا جوليت كلا !.. ثقي بأن ذلك الزواج لن يتم أبدا .. وإذا أصر عليه ذلك الكونت الدنس المنغمس في الرذائل . فإن سيفي كفيل بزجره وردعه وتأديبه ليكون عبرة لسواه .

وجلس تيبالدو يسليها ويلطفها بشتى الأحاديث ، وقد اعتزم أن يصرح لها فيما بعد بأنه سيخطبها لنفسه إذ هو أولى بها من أي إنسان آخر وكأنما أنست هي إلى ملاطفته ، وأرادت أن تخفف بعض ما تعانيه من حبها المكبوت لروميو ، فقالت له :

— لقد اختار لي أبي قبل ذلك نبيلاً أعور ثقیل الظل هو رونزولوني وهما هو ذا يختار لي ذلك الكونت الفاسد الخلق . ولكني ماكنت لأستطيع قبول الزواج بهذا ولا ذاك ، لأنني وهبت قلبي لآخر منذ زمن بعيد !
وملأ الزهو والخيلاء وجه تيبالدو ، إذ حسب أنها تعني حبها له هو .

وقال لها في حماسة وهو يضع يده على مقبض سيفه :

— هوني عليك يا ابنة العم ، وكوني على يقين من أنك لن تتزوجي إلا من تحبين !

وازدادت جوليت اطمئنانا إليه ، فمضت في اعترافها قائلة :

— لقد أحببته من كل قلبي حبا طاهرا شريفا ، وبادلني هو هذا الحب وتعاهدنا على أن يكون كل منا للآخر ، ولكنني لا أستطيع أن أصرح لوالدي بأنني لا أريد الزواج بأحد غير روميو مونتيكي !
وجن جنون تيبالدو ، ونهض نائرا وهو يقول :

— ماذا تقولين ؟ .. أنت تحبين روميو مونتيكي ؟ ! ان هذا جنون ،
أي عار ألحقت بآل كابلليتي .. كلا .. كلا ! .. هذا شيء لا يمكن
السكوت عليه !

ثم خرج مهرولا وذهب الى حيث كان عمه جالسا مع زوجته ،
فابتدرهما قائلا وهو مازال غاضبا نائرا :

— أبة فضيحة هذه ؟ .. ان ابنتكما تحب روميو مونتيكي وهو
يحبها ! أين كانت رقابتكما عليها حتى ألحقت بالأسرة هذا العار الشنيع ؟ !
ومضى في ثورته وحنقه يضرب المائدة التي امامهما بقبضته حينما ،
ويذرع جوانب القاعة مرغيا مزبدا حينما ، وهما ذاهلان يتبادلان نظرات
الدهشة والافتئام . ثم لم يستطع السيد مونتيكي صبرا على ذلك
فصرخ فيه قائلا :

— ماذا أصابك يا تيبالدو ؟ .. انك تزعجنا بحماقتك هذه . ان
كونك ابن المرحوم أخى لا يسمح لك أبدا بأن تقف في حضرتي غير موقف
الأدب والاحترام . أغرب عن وجهي الآن أيها الولد الوقح المجنون !

ولم يسع تيبالدو الا أن يغادر قصر عمه وهو يرغى ويزبد ويصق
على الأرض ويضربها بقدميه مزجرا كأنه أسد طعين مثخن بالجراح !

لم تجد محاولات السيد كابلليتي ولازوجته شيئا في سبيل الوقوف
على حقيقة العلاقة بين ابنتهما وروميو ، فقد أصرت جوليت على الإنكار
كما أصرت أوزيبيا وكل خدام القصر على ألا علم لهم بشيء عن تلك العلاقة
الآثمة الخطيرة التي أكد تيبالدو ان جوليت اعترفت له بها !

وفكر الوالدان في الأمر مليا ، فلم يجدا خيرا من التعجيل بزواج
ابنتهما بالكونت لودرون ، ولم تمض أيام حتى دعاه السيد كابلليتي
الى قصره وقدم له جوليت قائلا :

— هذه هي جوليت ابنتي يا كونت ، ولاشك انها فرحة فخورة
بهذا اللقاء السعيد !

وكان الكونت لودرون في الثلاثين من عمره ، معجبا بوسامته وأناقته
وثقافته ، وقصد ارتدى معطفا سميكاً من الفراء الثمين حلي بالأشرطة
والسلاسل الذهبية ، ورائحة المسك تفوح قوية من أردائه ، فرقع
امام جوليت وتناول يدها متلفظا وطبع عليها قبلة رقيقة ، ثم قال
متظرفا :

— يشرفنى جدا أن أسعد بالمثل بين يدى الأنسة النبيلة المهذبة .
ولا شك أن أقدر العارفين بالحسان لا يمكن أن يجدوا من تدانى الأنسة
فى هذا الجمال والجلال !

وحينما استقر بهم الجلوس ، حرص السيد مونتيكى وزوجته
على أن تجلس جوليت الى جوار خطيبها الجديد ، ليحاول أن يكتسب
قلبا بحديثه العذب حسب الاتفاق . فأخذ يحدثها عن الحكماء
والفلاسفة وأبطال العصور القديمة ، وعن الروائع العطرية النادرة التى
جلبها من بلاد العرب ، وعن رحلاته للصيد والقنص ، وألوان الطعام
الحديثة التى كان أول من قدمها على موائده فى المآدب والحفلات التى
يقيمها بقصره الشاهق الجميل .

وكان خلال ذلك شديد الحرص على أن يظهر لها وسامته وقوته
واناقته فى حركات وإشارات متكلفة . ثم دخل فى الموضوع الذى جاء
لأجله فقال لها :

— فى أى فصل من فصول العام تفضل سيدتى الجميلة أن يتم
الزفاف ؟!

وكان صبر الفتاة قد نفذ ، ولم يسعها أن تستمر فى تمثيل
دور الخطيبة السعيدة بخطيبها طبقا لتعليمات أبويها ، فأجابته
قائلة :

— الواقع أنى لا أريد الزواج فى أى فصل من فصول السنة ، وقد
اعتزمت أن أهب نفسى لله وأعيش عيشة الراهبات !

وأطلق الكونت ضحكة عالية متكلفة ، إذ حسبها تمازحه ، ثم قال
لها :

— أن مثل هذا الشعور ياسيدتى ينتاب كثيرا من الفتيات قليل
الزواج ، وذلك لكثرة تفكيرهن فيما ستكون عليه حياتهن الجديدة فى
وسط آخر غير الذى نشأن فيه .

ثم ضحك مرة أخرى وبالحق فى نظرفه قائلا :

— على أنى واثق كل الثقة بأن شعور سيدتى لا بد أن يكون على
عكس ذلك تماما ، فذلك شأن كل فتاة تعرف أنها ستفادر دار أهلها
لتحيا حياة أجمل وأسعد فى دار زوجها ، ولا سيما إذا كانت حياتها الجديدة
فى قصر عظيم لا تنقطع منه المآدب والحفلات ، ومع زوج محب مطيع
لا يدخر وسعا لكى يهيبها كل ماتتوق اليه من رحلات مسلية ومباهج
مختلفة وذرية جميلة صالحة !

وجاهدت جوليت عواطفها واطرقت ساكتة محاذرة أن تبدو منها
بادرة أخرى تفضح شعورها أزاء الكونت المتظرف السخيف ، فيفضب
أبوها وينفذ ماتهددها به من إرسالها الى الدير ، فى حين أنها اتفقت
مع روميو على أن تتظاهر أمام والديها بقبول ذلك الخطيب الجديد ،
ريثما يدبر حيلة لاقصائه من طريقها كما حدث فى شأن الخطيب
السابق .

وظن الكونت أنها أطرقت حياء وخفرا ، فابتسم مزهوا بنفسه ،
ومضى يلقي على سمعها حديثا طويلا ثقيلآ عن مزايا الحياة عند الفتيات
قبل الزواج .

ثم انصرف أخيرا بعد أن ودعها بمثل تلك الحركات المسرحية
البهلوانية ، وشيعه أبواها بكل اجلال واعجاب !

سمع السيد كابلتي ضجة بباب قصره وهو جالس فيه ذات
صباح ، ثم جاء اليه أحد الحراس وأخذ يعتذر عن وقوع تلك الضجة
قائلا :

— ان قزما أحذب جاء الى القصر مبكرا وزعم انه يريد مقابلة
سیدی في شأن خاص ، فلما لم تجز حيلته علينا وطلبنا منه ان ينصرف
ثم يعود بعد الظهر لينال نصيبه من فضلات الطعام والشراب ، رفض
ان ينصرف وأحدث تلك الضجة .

وأمره السيد كابلتي بإحضاره اليه ، وما ان وقعت عليه عيناه
حتى بدأ الاشمئزاز في وجهه وبصق على الأرض ، ثم صاح به من بعيد
قائلا :

— ماهذا ؟ . . أمجنون انت ؟!

فرفع القزم الأحذب وجهه المشوه متحفزا للكلام ، ثم تقدم خطوات
الى الأمام في مشية غريبة مضحكة لقصر في إحدى ساقيه وانخفاض إحدى
كتفيه عن الأخرى ، وقال بصوت أجش يشبه نقيق الضفادع :

— لدى أمر خطير كبير الأهمية ، وقد جئت لأبلغه الى السيد المحسن
الكبير فكاد الحراس يحولون دون قيامي بهذا الواجب .

فسأله السيد كابلتي في غير اكتراث :

— ماهو هذا الأمر ؟

فقال القزم الأحذب بعد أن التفت الى الحراس الواقفين خلفه :

— ان ما جئت لأجله ينبغي ألا يسمعه أحد غير السيد عميد آل
كابلتي وحده !

فتفرس في وجهه هنيهة وهو يغالب التقزز من قبح منظره ،
ثم أشار الى الحراس الواقفين أن ينصرفوا وقال له بعد
انصرافهم :

— تستطيع الآن أن تقول كل مالدیک ، على أن توجز كل الايجاز .
فاقترب القزم الأحذب خطوتين أخريين ، ثم قال له :

— ان طارقا غير مرغوب فيه زار هذا القصر ليلة أمس وبقيت
أنفاسه الدنسة تتردد في بعض جوانبه الطاهرة حتى مطلع الفجر ،

وقد لمحتة حينما هبط السور في خفة الثعالب لكنه اختفى في منحنيات الطريق قبل أن يتمكن من اللحاق به ورؤية وجهه .

فتذكر السيد كابلتي عند ذلك ما كان تيبالدو قد نبأه به من أن هناك غراما متبادلا بين جوليت وروميو مونتيكي ، لكنه طرد هذه الفكرة من ذهنه وسأل القزم الأحب قائلا :

— أكان لصا ؟ .. وهل رأيتَه يحمل معه شيئا ؟

فهز القزم رأسه ذات اليمين وذات الشمال ، ثم قال :

— نعم هو لص خطر مافى ذلك شك ، لكنه لا يسرق الا قلوب العذارى !

وهنا ارتجف السيد كابلتي غضبا ، اذ عادت الى ذهنه فكرة الغرام المتبادل بين روميو وجوليت ، ثم سأله مرة أخرى :

— كيف علمت أنه دخل القصر لأمر كهذا ؟

فقال : « مررت بذلك الجانب من القصر سحرا ، وكنت متعبا ولا اكاد أتبين الطريق لشدة الظلام ، فأويت الى السقيفة القائمة هناك ، وفيما أنا أهم بالنوم ، لمحت شبح ذلك اللص وهو يتسلق السور ويقفز الى شرفة فوقه ، ثم لبثت ساعتين وأنا أسمع همسا صادرا من هناك ، وكان في توديعه عند أنصرافه شبح يقف في تلك الشرفة متشحا بالبياض ! »

وهنا لم يبق شك لدى السيد كابلتي في صحة اتهام ابنته ، وأخذ يفكر في وسيلة للانتقام وغسل تلك الإهانة ، ثم استأنف الأحب كلامه فقال :

— ان العاشق المجرم المجهول سيعود الى فعلته التي يستحق عليها أشد العقاب و ...

فقطع السيد كابلتي كلامه وقال : « سانتظره وأمزق قلبه بخنجرى ! »

فقال الأحب : « انه أخطر من ثعلب ، فينبغى ألا نثير ارتيابه وحذره والا أفلت منا . » وخير من ذلك أن نفرش الأرض في ذلك الموضع برماد يلصق بنعله فيسهل علينا أن نقص أثره لنعلم اين يذهب بعد ارتكاب جريمته ! »

فأوما موافقا وقال : « انك لست غبيا ، وسنفعل هذا ، وويل لك ان كنت من الكاذبين ! »

وفي الليلة التالية ، التقى العاشقان ، وكانت جوليت تشعر بقلق خفي يضطرم في نفسها ، وشعر روميو بارتجافها بين ذراعيه فقال لها :

— اطمئنى يا حبيبتى ، ان الله سيخلصنا من هذا الخطيب الجديد
كما خلصنا من سلفه ، وسيكلل صبرنا بالفوز فنصبح زوجين أمام الله
والناس ، ولا تبقى لنا حاجة الى التخفى والتكتم !

فتأوهت ونظرت اليه قائلة :

— ما أحسن أن يتحقق هذا الأمل أيها الحبيب ، ولكننى خائفة .

— نعم ياروميو اننى اخاف العقبات التى تعترض سبيلنا !

وفيما هما كذلك وصل الى سمعهما صوت بلبل يغرد على غصن
شجرة قريبة من الشرفة ، ومالبث قليلا حتى جاوبته أصوات لطيفة
أخرى من البلابل المستقرة على الأشجار المجاورة ، فبقى الحبيبان
حينما يصغيان لموسيقى البلابل المغردة توديعا لليل واستقبالا
للنهار . ثم طارت بعض العصافير فجأة ومرت قريباً منهما فأجفلت
جولييت وأزدادت التصاقاً بروميو ، ثم همست اليه قائلة :

— آه ياروميو ! .. ما أقسى أن يحال بين قلبينا المتحدين ! .. ان
تلك العصافير تستقبل النهار سعيدة مستبشرة ، لأنها تمضى فى نوره
جرة طليقة ، أما نحن ..

ثم التفتت برأسها الى الأفق الممتد أمام الشرفة وقد بدت تباشير
الصباح ، وبدأت اجراس الكنائس تطلق دقاتها المنتظمة . فاختلط رنينها
بتغريد الطير وحفيف أوراق الشجر ، وعادت تهمن اليه قائلة :

— روميو .. لم حاثت ساعة الفراق عاجلة هكذا ؟ .. أنا
لا أريد أن نفرق أبداً ! .. ولكننى أخشى عليك الأخطار المحيطة بنا ..

فقال لها وهو يضمها الى صدره :

— لا تخشى شيئاً .. هناك عند أدنى السور رجل أحدي مسكين
كلفته أن يرصد الطريق ، وسأسمع صفيره منذراً أياى ، اذا رأى ما ينبغى
أن يذرنى به !

فبغتت وأفلتت ذراعها من عنقه ووضعت يدها على قلبها قائلة :

— ماذا قلت ياروميو ؟! .. أهنالك الآن من يعلم بأمرنا ؟ .. من
يكون ذلك الرجل ؟ .. هل يحمل سلاحاً ؟ .. وهل أعطيته مالا ؟ ..
آه ياروميو ، كم أنا خائفة ! .. أنسيت ماذكرته لى عن نبوءة المنجم
لك فى طفولتك ؟ .. ألم يذكر أن هناك خطراً على حياتك من رجل
يأتى من الشرق ، ويأخذ منك مالا لقاء الشر الذى يصيبك منه ؟!

فابتسم روميو وربت شعرها متلطفاً وقال :

— تلك خرافات تلووها السنة المنجمين ، وليس هناك ما يدعو
الى الخوف والقلق ، فاطمئنى واصبرى ، وليس بعد الصبر الا الفرج
بعون الله .

ثم حلق في عينيها وهو يتسم ، وعاد يضمها إلى صدره في عطف وحنان ، ثم تبادلا قبلة الوداع . وقفز إلى السور ثم أخذ يهبطه وهي تتبعه بنظراتها حتى لم تعد تراه !

وبعد ساعة كان السيد كابلتي يقف هناك عند أدنى السور ، وبجانبه ذلك القزم الأحب الخبيث . ثم أخذا يقصصان أثر قدمي روميو عبر الطريق مهتدين بما تخلف عنهما من الرماد الذي ذره الأحب الماكر هناك ، إلى أن انقطع الأثر عند قصر آل مونتيكي ، فعاد السيد كابلتي إلى قصره وصدره يغلي غيظا وحنقا ورغبة في الانتقام !

وقرر أول الأمر أن يزج بجولييت في السجن لتقضى فيه بقية حياتها مكفرة عن الذنب الذي اقترفته ، ثم رأى أن يستبدل الدير بالسجن . على أن زوجته مازالت به تهديء من ثورته ، وتخفف غضبه ، حتى رضى أخيرا بأن يعدل عن هذا وذاك صونا لشرف الأسرة وكرامتها من القتل والعال ، على أن يعجل بزواج ابنتهما من الكونت لودرون خطيبها الجديد .

ثم خلت بعد ذلك إلى جولييت ، وحدثتها بكل ما كان ، طالبة منها أن تستغفر لذنوبها ، وأن تنسى إلى الأبد ذلك الفتى الذي حاول أن يلطخ شرفها وشرف أسرته بالعار .

وبدا الاستعداد للزواج منذ ذلك اليوم ، دون أن تستطيع جولييت أن تبدى أى معارضة أو احتجاج أو رغبة في التأجيل ، ودون أن يبقى لديها أى أمل في لقاء روميو لتحذره ما يهدد حياته من الاخطار ، فقد أصدر أبوها أمره بنقلها إلى غرفة أخرى بعيدة عن غرفتها الأولى !

الفصل الثامن

وفاء الحبيبين

زواج أسام الله

توجه روميو الى قصر كابلتي في الليلة التالية ليلقي جوليت في شرفتها كما تعودا ، ولكنه وجد غرفتها مظلمة ، وشعر بأن هناك من يرقبون الطريق . فعاد من حيث أتى واجف القلب حيران . واستمر يكرر محاولته بضع ليال دون جدوى ، الى ان تحقق انكشاف أمرهما ، ونقلها الى غرفة أخرى استعدادا لعقد زواجها بالكونت لودرون .

وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، ولم يستطع صديقه ماركوتشيو ان يسعفه بحل عاجل لهذه المشكلة ، فلاح له أن يلجأ الى الاب لورنزو استاذة القديم ليشاوره في الامر . وكان هذا يعيش معتكفا بين الاعشاب والنباتات التي يستخرج منها الادوية في دير الآباء الفرنسيين ، وقد مضى عليه خمسة عشر عاما لم ير خلالها روميو ، فتلقاها مرحبا به ، واستمع لحديثه عن مشكلته في عناية واهتمام ، ثم قال له :

— ان مستقبل الفتاة يابنى منوط بإرادة والديها ، وما داما قد أرادا لها الزواج من ذلك الكونت فليس لأحد أن يعارضهما في ذلك . ولست أرى أملا في صلح قريب بين أسرتيكما . وعلى هذا لا مناص لك من الصبر والاستسلام لما يجري به القضاء !

وانصرف روميو يائسا وهو يتمتم قائلا :

— اى صبر يمكن أن ينفع في مثل هذا الأمر ، لا شيء غير الموت يستطيع ان ينقذنى من هذا العذاب المرير !

ولبت الاب لورنزو طول يومه يصلى ويفكر في وسيلة ينقذ بها تلميذه العاشق والفتاة التي عاهدته على الوفاء .

ثم فوجيء في اليوم التالي بأن جاءت اليه جوليت في صحبة أمها ، مبدية رغبتها في ان تعترف أمامه ، فلما خلا إليها انفجرت باكية على كرمى الاعتراف وقالت له :

— أننى أحب روميو مونتيكى ، ولا أريد به بديلا أيا كان ، ولكن أبى يريد أن يزوجنى بآخر لا أشعر نحوه بغير الازدراء ، بل انى أوتر الموت والسجن على الزواج به . وأنا أعرف انك تحب روميو وتقدر نبلى نفسه وطهارة قلبه ، ولهذا جئت التمس عندك مخرجا من هذا المأزق !

وأطرق الاب لورنزو قليلا وهو يتمتم ببعض الصلوات والادعية ، ثم قال لها فى صوت يثم عن الشفقة والرثاء :

— ماذا أستطيع أن أصنع لأجلكما يابنيتي ؟ ان العداء بين أسرتيكما لم يدع هناك أى أمل فى تحقيق حلمكما الجميل النبيل !

فقالت له : « لقد لاحت لى فكرة الآن .. أن روميو يستطيع أن يحضر اليك هنا وأن يجلس على كرسى الاعتراف الملاصق لهذا الكرسى »
ثم سكتت وأخذت تنظر اليه ذاهلة ، وواصلت بعد ذلك كلامها فقالت :

— لن يساور والدتى أى شك فى أن روميو مونتيكى يمكن أن يكون جالسا الى جوارى هنا . فمن الممكن أن يحضر قبلنا ويجلس على كرسى الاعتراف دون أن تراه .

فقال لها وهو يقلب كفيه متسائلا : « وأى فائدة لكما من ذلك ، هل هذا يمنع زواجك من الفتى الآخر الذى اختاره أبواك ؟ ! »

فقالت : « نعم يا أبى . أنه يمنع ذلك اتزواج البغيض ، بل يحول دون موتى وموت روميو غما وكمدا .. ولا يقتضى الأمر ألا أن توافق أنت ! »

فجحظت عينا الراهب الشيخ وفغر فاه دهشة ، بعينا واصلت هى همسها له ودموعها تبلل خديها قائلة :

— فى استطاعتك أيها الأب الشفيق ، أن تعقد زواجنا أنا وروميو ونحن هنا بين يديك . وبذلك تضع أسرتينا أمام الأمر الواقع ، ولا يبقى هناك من يستطيع أن يحل الرباط المقدس الذى ربطت به بين قلبينا !
وزفر الأب لورنزو زفرة حارة ، وهز رأسه أسفا ، وقال لها :

— هذا حق يابنيتي ، ولكنى لا أستطيع الاقدام على عمل كهذا ، لا شك فى أنه يثير غضب آل كابليتي وآل مونتيكى معا !

فجشت جوليت بين يديه ، وتناولت يده وراحت تقبلها ، ثم قالت له :

— ما الذى تخشاه يا أبى ، ان أهل المدينة جميعا على يقين من صلاحك وتقواك ، ولن يداخلهم أدنى شك فى حسن نيتك ونبل قصدك ، وابتغائك وجه الله والصالح العام .. ان أسرة ديلا سكالا حاكمة فيرونا ما زالت تسعى جاهدة للصالح بين آل مونتيكى وآل كابليتي . وليس ثمة أى زيب فى أنها ستتلقى صنيعك هذا بالحمد والاعتباط ، لأنه خير ما يؤيد مساعيها النبيلة لنشر الأمن والطمأنينة فى المدينة !

وفكر الأب لورنزو مليا فى هذا الأمر ، ثم مد يده وربت كتف الفتاة الراكعة الدامعة أمامه : واستمر قائلا لها :

— لتكن إرادة الله . انهضى يابنية وكففى دموعك واطمئنى .
سيأتى روميو الى هنا فى الساعة السابعة بعد ظهر يوم الاثنين القادم

فيجلس على هذا الكرسي الذي بجانبك ، وبعد ساعة تحضرين أنت ووالدتك .

وتم تجد جوليت أية عقبة في سبيل حضورها الى الكنيسة في ذلك الموعد ، فقد اعتقد أبواها أنها تريد أن تظهر نفسها بالاعتراف قبيل زفافها القريب الى الكونت لودرون ، وصحبته أمها راضية مطمئنة جذلة الى الكنيسة ، وبقيت في انتظار فراغها من أعمال اعترافاتها وهي تصلي هناك قريبا من المذبح ، الى أن أتم الأب لورنزو مراسيم الزواج ، ودعا للزوجين الحبيبين بالسعادة والتوفيق .

علم تيبالدو من أحد خدمه أن قزما أحذب يغشى حانات المدينة كل مساء ، منقفا على أصدقائه من الدهماء والمرتزة بسخاء ، وأنه يزعم للمستمعين لثروته في كل حانة يغشاها أن ذلك المال الكثير الذي ينفقه جاءه من السيد كابلليتي مكافأة له على كشف سر خطير كاد يلحق العار بأسرته الكبيرة .

وأدرك تيبالدو أن ذلك السر ليس سوى الغرام المتبادل بين ابنة عمه وروميو مونتيني ، فعاوده حقه على روميو ، وقرر أن يفتال حياته ، ثم أخذ يعد لذلك عدته ، فاختر اثنين من أعوانه . تم كمن ثلاثتهم في طريق روميو حتى بصروا به ذات ليلة عائدا الى قصره ومعه مركوتشيو صديقه الحميم . وحينئذ خرجوا عليهما وتقدم تيبالدو وهو يحجب وجهه بقبعته وياقة معطفه فتجرحن بمركوتشيو وصدمة صدمة عنيفة كسدت تطرحه أرضا .

وتحفر روميو لتأديب ذلك الشخص الوقح الطويل اللسان ، ولكن مركوتشيو قال له : « لا عليك يا صديقي ، انه سكران ! »

ولكن تيبالدو عاد يقول : « لو أنني سكران لأفقت بالغثيان لمنظركما ، وهنا ضحك روميو ، ثم قال لتيبالدو دون أن يعرفه :

— لن نكلفك عناء افراغ ما في جوفك لكي تفيق ، وإذا لم تكف عن هذرك فسأفتح كرشك بسيفي هذا لأخلصك مما فيج من شراب رديء !

وسرعان ما استل تيبالدو سيفه من غمده وهجم به على مركوتشيو ، بينما استل زميلاه البابويان سيفيهما وهجما على روميو .

واستطاع تيبالدو أن يجرح مركوتشيو في ثلاثة مواضع من وجهه وجسمه ، ومازال يشدد الهجوم عليه حتى اضطره الى التقهقر متخاذلا حيث استند الى جدار نافورة هناك كيلا يختل توازنه . أما روميو فاستل سيفه بسرعة متلقيا به مبارزته ، وقد أدرك أن في الامر شركا منصوبا ثم سرعان ما دس نصل سيفه في ذراع أحد الرجلين ، ثم هجم على الآخر فسلم احدي أذنيه . ولم يشأ أن يتعقبهما بعد أن لاذا بالفرار صارخين مولولين . بل انطلق الى حيث كان تيبالدو قد ضيق الحصار على مركوتشيو وكاد يفتك به . وفي مثل لمح البصر أطار قبعة تيبالدو عن رأسه بضربة فنية أخرى . ثم عرفه بعد انكشاف وجهه فصاح قائلا :

٠٠٩ : دعه لي يامر كوتشيوي ، انه يريدني أنا !

وحول تيبالدو هجومه الى روميو ، عاجله بضربة أودعها كل قوته
وحققده ، على أن روميو عرف كيف يروغ من هذه الضربة ، وفي الوقت
نفسه استطاع أن يطير سيف تيبالدو من يده بضربة فنية سريعة بارعة ،
ثم وقف يضحك ساخرا منه . اذ رآه وقد تملكه الذعر والاضطراب .

على أن تيبالدو لم يعتبر بهذه التجربة القاسية ، ولا بتوزيع روميو
عن قتله في يسر وسهولة خلال الفترة التي جرده فيها من سلاحه . فما
كاد يصل ستالما الى حيث استقر سيفه على الارض حتى التقطه ، ثم كر
شاهرا اياه في يده ليعاود النزال وعيناه تقذحان بشرر الحقد والبغضاء .

وضحك روميو مرة أخرى وقال له في صوت هادئ رزين :

— حسبك يا تيبالدو ، وأغرب عن وجهي ، فليست بي حاجة الى
قتلك !

ولكن تيبالدو ركب رأسه ومضى في هجومه غير عابئ بتلك
النصيحة .

وهنا لم يسع روميو الا أن يتلقى هجماته بأشد منها ، ولم تمض
دقائق حتى عاجله بضربة رأسية نفذ بها نصل سيفه الحاد في كرشه
واخترق قلبه ونفذ من ظهره ، فترنح متوجعا وسقط على الارض فاقد
الحراك !

وشهد زميلاه مصرعه وهما يرقبان المعركة من بعيد ، فعلا صراخهما ،
وأخذا يستنجدان بالحراس ، بينما سارع مركوتشيوي الى روميو وجذبه من
كتفه وهو مكب على جثة تيبالدو يحاول اسعافه ، وهتف به قائلا :

— ماذا تنتظر يا روميو؟ .. هيا .. أما ترى الحراس قادمين برماحهم
ومعنا بيحهم من أقصى الشوارع !

وظهرت على أثر ذلك أضواء في نوافذ بعض الدور القريبة ، وفتحت
أبواب هنا وهناك وبدأت أشباح السكان الذين استيقظوا على أصوات
الاستغاثة تتحرك في اتجاه ميدان المعركة ، فنهض روميو وانطلق هو
ومركوتشيوي راكضين بأقصى سرعتيهما حتى لا يلحق بهما المطاردون !

وهناك في أقصى الشارع ، فوجيء روميو بشرذمة من الحراس
المسلحين قادمين من الجهة الأخرى ، فسقط في يده ووقع بين نارين ، وبقي
هنيهة حائرا يدور حول نفسه ويدور رأسه حوله ، ثم قفز بكل قوته الى
شرفة قريبة منه ، وتسلق النافذة التي كانت تعلوها حتى بلغ سطح الدار
فصعد اليه في اللحظة التي وصل فيها القادمون وراحوا يسددون اليه
سهامهم صائحين محذرين . ولكنه كان قد أفلت من أيديهم وسهامهم اذ
قطع عرض السطح زحفا على بطنه وهبط في أقصاه الى حديقة مجاورة
تابعة لدير الآباء الكورداليين .

وفي صباح اليوم التالي، جاء السيد البرانو ديللاسكالا حاكم المدينة

بنفسه الى الدير ، وأخرج منه روميو ، ولكيلا تنشب الحرب بين
أسرتي كابلليتتي ومونتيتكي ، حكم بنفيه من فيرونا ، وبأن يغادرها الى
مانتو قبل أن تغرب شمس ذلك النهار !

وكانت جوليت قد استيقظت على الضجة التي ملأت قصر أبيها ،
وهرعت اليها أوزيبيا ودخلت عليها غرفتها تبكي وتولول وتندب قائلة :
- يا للهول .. يا للنكبة النكباء والداهية الدهياء ! .. لقد مات !
وشهقت جوليت شهقة قوية ، وكاد قلبها يقف من هول الفجعة
التي شعرت بها ، اذ انصرف ذهنها دون تفكير الى روميو .

ولكن أوزيبيا استمرت في ولولتها وندبها وأخذت تقول :
- ويل لآل مونتيتكي ، لقد قتله روميو ابنهم !
وهنا أحست جوليت ان موجة ثلجية غمرت بها ، وصاحت بأوزيبيا
قائلة في لهفة :

- ماذا حدث ؟ تكلمي يا أوزيبيا !
فقالت لها : « لقد مات تيبالدو قتيلا بيد روميو مونتيتكي ! »
وانتفضت جوليت ، ثم تملكها الدهول وتهاكت على مقعدها كالمغمى
عليها ، ولم تدر أتفرح لسلامة روميو حبيب القلب والزوج الشرعى أمام
الله ؟ أم تحزن لمصرع تيبالدو ابن عمها ورفيق صباها ؟
وبقيت حتى العصر وهي ذاهلة مشدوهة ، وبين الفينة والفينة تتأوه
أو تصعد الزفرات مرردة :

- روميو .. تيبالدو .. تيبالدو .. روميو !

ولما علمت بعد ذلك بأن الحاكم مضى للقبض على روميو ، لم يعد فى
ذهنها أى صورة لغير روميو والخطر المحدق بحياته ، ولم تقو على تحمل
الفرحة بنجاته من القتل ، فأغمى عليها حين علمت بأن الحاكم اكتفى بأن
نفاه !

وأفاقت الفتاة من اغماؤها . فاذا أبوها قد عاد الى القصر ، ثم اذا هو
يأمر بأن يزج بها فى غرفة السجن بأعلى القصر ، وأن تترك فيها حتى تغادر
القصر الى قصر زوجها المنتظر بعد انتهاء الحداد !

وكان السيد كابلليتتى فى حال من الغضب والثورة لم تجرؤ معها زوجته
على أن تستعطفه أو تسأله الرأفة بابتئها الحزينة المريضة . فشيعتها
الى تلك الغرفة مواسية ، وتركت معها هناك أوزيبيا لتؤنس وحسرتها
وتسليها . وقبل أن تنصرف الأم سمعت ابنتها تهتف باسم روميو ، فالتفتت
اليها وصاحت بها قائلة :

- لا تتعلقى بالمحال يا جوليت ، ان روميو قد انتهى من فيرونا ،
ويجب أن يختفى من أفق حياتك لكى تنعمى بزواج سعيد !

ولم تنبئن جوليت ببنت شفة ، وبقيت على صمتها وذهولها يومين كاملين ، لم يدخل فنى جوفها خلالهما غير الماء وقليل جدا من الطعام !

وفى اليوم الثالث استيقظت أوزيبيا من مرقدتها أمام فراش جوليت ، فلم تجدها فيه ، ووجدتها تتسمع عند باب الغرفة الى أغاريد العصافير وهى تردد اسم روميو ، فصاحت بها :

— أى حماقة هذه وأى جنون ؟ . ان هذا الاسم يجب أن يمحو من ذاكرتك . انه قاتل تيبالدو ابن عمك الحبيب !

فتنهدت جوليت وتساقطت دموعها على خديها وقالت تحدث نفسها :
— كيف ؟ كيف لا أذكر اسمه وكيف لا أحبه ؟ انه حبيبى وزوجى أمام الله !

ولم يتطرق الى ذهن الموضع ان ما سمعته ليس سوى اعتراف من جوليت سبق به لسانها برغم حرصها على كتمان أمر ذلك الزواج ، وظنت الموضع الخالية الدهن والقلب ان الامر لا يعدو أمنية ترددها الفتاة العاشقة ، فنهضت ومضت اليها ووقفت بها على الباب بعد أن فتحتة ، ثم أشارت الى مناظر الحقول والبساتين الممتدة أمامهما وقالت لها :

— ارجعى الى عقلك يا بنية . انك ستزفين الى زوجك الكونت لودرون بعد أيام ، وأنت ما زلت فى مقتبل صباك ، ومجال السعادة أمامك فسيح . . . فهيا سرعى بصرك فى هذا الافق المشرق حيث الخضرة الزاهية يتخللها ماء الاديح الفضى اللامع ، والجبال الشاهقة والروابي المرتفعة تحيط به . . . ان هذا كله خليق أن يوحى اليك بحب الحياة !

ونظرت جوليت الى مرضعها الحنون الطيبة القلب فى أسف وأسى ، ثم ارتمت على صدرها باكية وقالت :

كل هذه المناظر والمباهج كانت رائعة ممتعة حينما كنا نستمتع بها معا ! . أما الآن فلست أرى إلا صورته ، ولست أسمع غير صوته . انه ملء قلبى يا أوزيبيا . . . ان حبه يسرى مع الدم فى عروقى وأعصابى . . . آه ! لو أننى أستطيع اللحاق به . . . أننى على استعداد لأن أقص شعرى وأرتدى ثوب خادم أو حامل سلاح اذا كان هذا يقربنى اليه !

وبعد أيام كان الاستعداد لزفاف جوليت قد أوشك أن يتم ، وأقبلت الهدايا تترى على قصر آل كابليتتى من صهرهم المختار الى ابنتهم التى أعجبه جمالها وخفرتها وحيائها ، وصدق ما توهمه من انها شغفت به حبا بعد أن أعجبت بوسامته وأناقته وظرفه وفلسفته وذكائه اللامع اللماح !

وكانت هداياه اليها كثيرة متنوعة غالية نادرة منتقاة بعناية ! وكان بينها عقود وأقراط وأساور وخواتم من اللؤلؤ والجواهر الثمينة الأخرى ، وقد وضعت كلها فى علب جميلة من الأبنوس المفضض أقالها من الذهب ثم وضعت هذه العلب فى ثلاثة صناديق من الجلد قرمزية اللون ، يحيط بكل منها فى كل صندوق ألوان من الثياب الحريرية والدمشقية والادوات

والتحف الثمينة بين أمشاط من عاج منقوش، وأزرار ذهبية ولؤلؤية وفراء من مختلف الأنواع والأحجام والألوان . وغير ذلك مما يليق بجهاز عروس نبيلة .

ثم أقام الكونت لودرون حفلة لإعلان خطبة جوليت له ، استمر الاستعداد لها بضعة أيام ، وأنفق فيها عن سعة وسخاء . ودعا إليها مع خطيبته وأبويها جميع آل كابليتتي وأنصارهم وأعوانهم ، وكثير من نبلاء المدينة وفي مقدمتهم حاكمها الجديد السيد البرانو ديلا سكالا ورجاله .

ولما أزيل الموعد لانتقال المدعوين إلى موائد الطعام والشراب ، جاء وصفاة القصر بماء معطر غسلت به جوليت يديها . وكان هذا الماء المعطر موضوعا في إبريق من الذهب يصبه منه على يديها وصيف ، بينما يقف وصيف آخر ليتلقى الماء تحت يديها في إناء من الذهب أيضا ، وآخر يمسك كميتها حتى لا يبلهما الماء إلا بمقدار ! ثم جلست مع خطيبها أمام اناء واحد كالمعتاد . واستمر المدعوون يأكلون ويشربون من العصر إلى الفجر ، ولم تنطق جوليت بكلمة طول الحفلة .

السيرة الأولى

خفت الرقابة المفروضة على جوليت بعد تلك الحفلة ، فانتهزت هذه الفرصة وتسلمت خارجة من القصر ، قاصدة دير الآباء الفرنسيسكانيين ، بعد أن تنكرت في ثوب خادمة والتفت بمئزر غطي كتفيها ووجهها ورأسها

وخف الأب لورنزو لاستقبالها ، فابتدرته قائلة :

— أدركني يا أبني ! ماذا أصنع ؟ لقد حددوا زفاني بعد أيام ، وإنك لتعلم اني زوجة لروميو المنفى في مانتو ، وما كنت لاقبل أن يدنسوا ما بيننا من رباط مقدس ، ولهذا جئت أستشيرك فيما أصنع !

ولم يكن الأب لورنزو قد علم شيئا عن ذلك الزواج الجديد ، لانقطاعه الى شئون الدين والعبادة واستخراج الادوية من النباتات والعقاقير . ومن هنا أذهلته المفاجأة فلم يجر جوابا ، وواصلت هي كلامها فقالت :

— لا شيء غير الموت يخلصني من هذا المأزق :

فأجفل الراهب الشيخ وقال لها :

— ثوبي الى رشدك يا بنية .. ان الله لا يريد لابنائه الموت !

فقالت : « اذن .. قل لي ماذا أصنع ؟ »

ففكر قليلا ثم نظر اليها ويده على لحيته وقال لها :

— هناك أديار كثيرة تستطيعين أن تعيشي في أحدها تصلين وتتعبدين مع من فيه من أخوات راهبات تقيات نقيات .

فقالت متبرمة: « لكني متزوجة ، فخير لي أن أموت وأن ينتظر جسدي تحت التراب ذلك الذي صار يملكه أمام الله »

فبدأ القلق والأسف في وجه الأب لورنزو ، ثم التفت اليها فجأة وقال لها وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة :

— انتظري قليلا يا ابنتي .. عندي لك دواء ناجح كفيلا بأن يحول دون زفافك الى من لا يمكن أن يكون زوجك !

ثم تركها راكعة تنظر اليه بعينيها الدامعتين ، وما لبث قليلا حتى عاد ومد اليها يده بزجاجة صغيرة وهو يقول : « هاك يا بنية الدواء المطلوب »

فتناولتها منه بيد مرتجفة وتنهدت ثم قالت :

— حسنا ! شكرا لك يا أبني .. هل أتجرع هذا السم الآن لاموت في هذا المكان المقدس !؟

فحدجها بنظرة عتاب وقال لها :

— لا تنفوهى بمثل هذا الكلام ، انك بهذا تخالفين وصايا الله • لقا
خلصت نفسك المريضة بالحب من الخطيئة ، وهأنذا أخلص جسديك ، فهذا
الذى فى الزجاجة اكسير اذا شربته فسرعان ما تستغرقين فى غيبوبة لا يشك
من يراك أثناءها فى انك ميتة • وتستمرين كذلك ثلاثة أيام كاملة • وعلم
هذا ليس عليك الا أن تتجرعى ذلك الاكسير قبيل زفافك غير المشروع ، فلا
تمضى دقائق حتى يعتقد الجميع انك فارقت الحياة ، وسيدفنونك خلال
ذلك فى مقبرة آل كابلتيى القائمة وسط مقبرة الدير خارج هذه الكنيسة •
وحينئذ آتى أنا اليك هناك وانقلك إلى هنا • ثم اصطحبك متنكرة فى سفرنا
القريب الى مانتو حيث نحضر مجمع الرهبان الذى سيعقد فيها ، وأسلمك
الى زوجك هناك !

ولم تتمالك جوليت عواطفها فانفجرت باكية لفرط اغتباطها بالخلص ،
ثم قبلت يد الراهب الشيخ مكررة شكرها له وثناءها على ورعه وتقواه ،
وعادت الى القصر دون أن يشعر أحد بدخولها أو خروجها •

وفى اليوم التالى أرسلت جوليت مرضعها أوزيبيا الى الدير تستقدم
اليها راهبا كان قد التحق به حديثا وعهد اليه فى كتابة المزامير وما اليها ،
وأملت عليه خطابا لترسله الى روميو قالت فيه :

— « عزيزى روميو •• ان السماء لم ترض أن أصير زوجة لذلك الكونت
الأحمق السخيف ، فقد أعطانى الأب لورنزو اكسيرا لاتناوله قبيل اتمام
ذلك الزواج الذى لا يرضى عنه الله ، حينئذ يحسبنى الجميع فارقت الحياة ،
ثم يدفنوننى فى مقبرة الآباء الفرنسيسكانيين ، وهناك أفيق من غيبوبتى
فى اليوم الثالث • وهو يوافق اليوم العاشر من الشهر الحالى • فعليك أن
تحضر الى فيرونا وتأتى الى هناك فى ذلك الموعد لكى تغادر المدينة معا ونعيش
فى أى مكان حسب شريعة الله ، بعيدا ممن يريدون أن يحولوا بظلمهم دون
تنفيذ ارادته »

ثم جاءت اليها أوزيبيا بأخ لها فى الرضاع يدعى (بيبو) وهو كهل
ثقيل السمع واللسان فيه سذاجة ملحوظة • فكلفتها الذهاب الى هانتسو
وتسليم الخطاب الى روميو مونتيكى هناك ، فتناول الخطاب وأوما مطيعا
وانصرف به وهو يقول « سيكون عنده قبل مساء الغد ! »

الفصل التاسع

اللقاء الأخير

زفاف إلى الموت

حرص السيد كابليتي والكونت لودرون على أن يكون الاحتفال بزفاف جوليت أفخم وأروع ما شهدت فيرونا خلال تاريخها الطويل من احتفالات

ومنذ ضباح ذلك اليوم أخذت أجراس الكنائس تدق دقات الابتهاج ، واختشد في ميدان الكنيسة جمهور كبير من أهل المدينة وضواحيها لمشاهدة موكب العروسين ، وعهد إلى عشرات من الحراس بالمحافظة على النظام

وأخذ قصر كابليتي زخرفه ، وأقيمت الزينات داخله وخارجه على طول الطريق إلى الكنيسة ، وأخذ المدعوون يفدون إليه زرافات ووجدانا وكلهم في أفخم الثياب وأغلاها . وهناك في إحدى القاعات الكبرى بالطابق الأول عرضت الهدايا النفيسة التي قدمت للعروس ، وبينها هدايا زوجها وأبويها وأصدقاء أسرة كابليتي . ووضعت هدايا الحكماء على حدة تتوسطها هدية السيد البرانو ديلا سكالّا حاكم المدينة ، وهي مؤلفة من سلسلة ذهبية بها حبات كبيرة من اللؤلؤ وأحجار من الياقوت ، وقطعة من الصليب المقدس لا يموت من يمسها إلا وهو في نعيم !

ولزمت جوليت غرفتها حتى العصر ، ثم جاءت الوصائف فلبسناها ثياب العرس بأشراف والدتها وأوزيبيا ، وكان الكونت لودرون في انتظار موكبها أدنى السلم على رأس نخبة من المدعوين والمدعوات فاستقبلها مبتسما فاتحا ذراعيه ، فأمسكت ذراعه وسارت بجانبه في مقدمة الموكب إلى الكنيسة ، بينما أصوات الأبواق ورنات الأجراس تدوى في الأرجاء مختلطة بأنغام الموسيقى وهتافات الجماهير المحتشدة على طول الطريق

وكانت جوليت قد غافلت أوزيبيا قبل هبوطها السلم وتجرعت الأكسير الذي أعطاها إياه الأب لورنزو ، فما كادت تبلغ باب الكنيسة حتى شعرت بأن مفاصلها تتراخي ، وبأن ضجة الاحتفال تخفت قليلا قليلا حتى كادت تتلاشى ، وغامت الناظر أمام عينيها ، واشتدت صفرة وجهها ، وأبطأت دقات قلبها . ثم ترنحت وخرت ساقطة على عتبة الكنيسة بعد أن أفلتت يدها ذراع الكونت المتأنق المتظرف المتفلسف ، فوقف يجملق فيها مشدوها وقد استولى عليه الفرع والاضطراب !

وسكتت أصوات الأبواق وأجراس الكنائس ، وساد الوجوم جميع الحاضرين والحاضرات ، ثم دعى كبار أطباء المدينة على عجل

ففحصوا جثة الفتاة فحسبوا دقيقا ، ثم قرروا نقلها الى قصر أبيها ، حيث فحصوها هناك مرة أخرى . ثم تشاوروا فيما بينهم ، وتقدم كبيرهم فانحنى أمام السيد كابلتي وزوجته وهما واقفان يتبادلان النظرات في ذهول وقال لهما :

— لقد ماتت العروس متأثرة بفرحها الشديد !

وهكذا خيم المساء على فيرونا وقد تبدل فرحها ومرحها حزنا وكآبة وانقباضا ، وجللت الزينات المقامة بالسواد ، ودقت أجراس الكنائس دقات الحزن ، وأقيمت الصلوات فيها كلها على روح العروس الشابة النبيلة الحسنة .

وخرجت المدينة كلها في اليوم التالي تشيع جنازة جوليت ، ومشى والدها في طليعة المشيعين ومنظرهما الحزين يفتت الأكباد ، وبجانبها الكونت لودرون مرتديا ثوبا أسود حرص على أن يبدو فيه أكثر أناقة منه في ثوب الزفاف !

ولم تنقطع أوزيبيا الحنون عن البكاء والنحيب حتى انتهى الأب لورنزو من كلمة التابين المؤثرة التي ألقاها أمام جثمان الفتاة المسجى في التابوت قبل أن يوضع فوقه الغطاء ، ثم يحمل الى حيث ترقد بجانب من سبقوها من آل كابلتي في مقبرة الآباء الفرنسيين !

لم يستطع روميو حين غادر فيرونا منفيًا أن يأخذ معه الا قليلا من المال . وكانت هناك قافلة تجارية صغيرة في طريقها الى مانتو ، فقبلت أن يصحبها وخصصت له دابة ركبها . ولكن القافلة ما كادت تقطع بضعة أميال حتى خرجت عليها عصابة من قطاع الطريق ، ففتكت بأرواح بعض أفراد القافلة واستولت على جميع السلع والأموال والدواب . ولم يملك روميو ولا أحد غيره دفاعا عن أنفسهم ، اذ لم تكن معهم أسلحة كافية ، بينما أفراد العصابة كلهم مدججون بالسلاح ، ثم هم الى ذلك كانوا يعملون لحساب دوق ليناجو .

وأبى روميو أن يلجأ الى أحد الأديار ، أو أن يقترض مالا من أحد المرابين ، أو أحد النبلاء ، فتوجه الى مانتو ماشيا ، وآثر أن يكسب رزقه بكده فيها ، فالتحق هناك بالعمل في محل لصنع السلال ، كان يديره رجل طيب القلب ، يعول أسرة كثيرة العدد . وقد أعجب بحسن خلق الصانع الجديد ، واخلاصه لعمله ، وقناعته بالقليل الذي يحصل عليه . وكثيرا ما كان يطريه قائلا :

— حقا . . انك لأهل لأن تكون من أبناء النبلاء !

وفي مساء كل يوم كان روميو يمضى بعد فراغه من عمله الى مدخل المدينة ليرصد القادمين اليها من فيرونا ويسألهم متلهفا عما تم في أمر جوليت .

ولم يكن هؤلاء من يستطيع معرفة شخصه ، اذ كانت هيئته

قد تغيرت لفرط تأثره بفراق الحبيبة التي هي زوجته أمام الله ، وقد
علا التراب وجهه والثياب الريفية البسيطة التي يرتديها . وكانت
الانباء التي يستطيع الحصول عليها تبدو متناقضة ، مما زاد في قلقه
وحيرته وأساه !

وشاء القدر أن يحل وباء الطاعون بمدينة مانتو في تلك الايام ،
فساد الفزع والرعب أرجأها ، وهاجر منها كل من استطاع المهاجرة
من أهلها فرارا بأرواحهم من ذلك الوباء الفتاك ، بينما بقى الفقراء
والضعفاء ليهلك منهم عشرات في كل يوم وكان بعضهم يسرون وأكفانهم
ملفوفة حول أجسامهم مخافة أن يدفنوا عراة . كما كان بعضهم
يمضون الى المقابر بأنفسهم ليسهل دفنهم حين يموتون !

ولم تفد جهود الأطباء العظيمة لرد عادية الطاعون المغير ، فبقى
يفتك بالباقيين من أهل المدينة في غير رحمة ولا اشفاق ، برغم توزيع
مختلف الأدوية والعقاقير ، ورش المنازل والطرق بالروائح العطرية
وغيرها ، وتطهير أثواب الموتى والأدوات التي كانوا يستعملونها ، وغير
ذلك من وسائل الوقاية والعلاج في تلك الايام .

وجاء «ييبو» الى مانتو برسالة جوليت الى روميو ، في الوقت
الذي صدرت فيه تعليمات الحاكم المشددة بمنع دخول أى انسان الى
المدينة أو خروجه منها . وكان أشد ما خز في قلب روميو أنه رأى
بعينيه ذلك الرسول عند مدخل المدينة يستعطف الحراس أن يسمحوا
له بالدخول كي يسلم رسالة عاجلة إليه . فلم يشك في أن هذه الرسالة
من جوليت ، وانضم الى الرسول في التوسل والاستعطاف ليسمحوا
له بتسليم الرسالة . ولكنهم أصروا على تنفيذ التعليمات وحاولوا
بينهما بالقوة ، فعاد الرسول بالرسالة الى فيرونا مسرعا مخافة أن
يدركه الوباء !

لقاء الكسبيين

عاد روميو الى مدخل المدينة فى اليوم التالى ، يدفعه الأمل الكاذب فى أن يعود بالرسالة الى هناك . وفيما هو يتأمل الطريق وعيناه لا تكادان تبصران لفرط غمه واكتئابه ، لمح الحراس يشيرون الى رجل قادم نحوهم على حمار محمل ببعض السلع ويأمرونه بالرجوع ولكنه لا يمثل .

وكان الرجل يضح بالحراس قائلا :

— ماذا جرى فى الدنيا ؟ . لقد دخلت فيرونا امس فلم أجده بين أهلها على كثرتهم من يشتري شيئا من بضاعتى . فقد كانوا جميعا مشغولين بتشجيع جنازة عروس هى ابنة كبير منهم ، وقد ماتت المسكينة متأثرة بشدة الفرخ .

ودارت الأرض بروميو ، وترنح للسقوط لولا أن تمالك توازنه ثم صاح بالرجل سائلا وهو يرتجف ولسانه يتلجلج :

— ماذا تقول يا رجل ؟ . ألم تعرف اسم تلك العروس ؟

ونظر الحراس الى روميو متعجبين ، بينما واصل التاجر كلامه فقال :

— اسمها جوليت .. كابليتي .. واسم زوجها ..

ولم يسمع روميو شيئا بعد ذلك ، اذ وقع مغشيا عليه ، فلما أفاق كان الحراس قد اضطروا ذلك التاجر الى الرجوع بالقوة من حيث جاء !

وقال روميو لنفسه بعد أن احتوته غرفته المتواضعة :

— ماتت جوليت ، ماتت شهيدة الحب والوفاء .. ومن عجب أن يظن الفيرونيون أنها ماتت متأثرة بشدة فرحها بذلك الزفاف . ولكنى أنا زوجها أمام الله أعلم يقينا أنها ماتت متأثرة بما أصابها من الهم والحزن وهول ما هموا بارغامها عليه من زواج لا يقره الله ولا يرضاه القلب والضمير !

وبقى يبكى ويضحك حتى انتصف الليل ، ثم نهض فجأة واستل خنجره وهم بأن يطعن به قلبه ، ولكنه عاد فأغمد الخنجر وقال يحدث نفسه :

— كلا .. لا أريد أن أموت بعيدا عنها .. يجب أن أموت هناك بجانبها !

ثم تذكر أن في مانتو طبيبا يهوديا ساحرا ، اشتهر بخبرته الخاصة بأنواع السموم الفتاكة ، فنهض من فوره وغادر غرفته ، ومضى يضرب في شوارع المدينة وازقتها الملتوية المظلمة حتى وقف بباب منزل صغير مؤلف من طابقين وطرق الباب بقوة قائلا : « أفتح أيها اليهودي ! »

وهنا أطل المعلم الياس من النافذة ورد عليه بصوت مرتجف قائلا :
- سافتج يا سيدى .. هانذا أهبط السلم .. فأغضض من صوتك .

وبعد دقيقة كان المعلم الياس قد رفع المزاليج وفتح الاقفال العديدة التى أحكم بها غلق الباب من الداخل .

وحاول الرجل أن يتلصقا ، ولكن روميو استل خنجره وهدده به ، فلم يسعه الا أن قاده الى حجرة صغيرة ، بدت على جدرانها المتآكلة الرطوبة في ضوء المصباح الخافت سلاحف معلقة وثمانين وجماجم بشرية وأوعية زجاجية تلمع بجانب موقد تشتعل فيه النار ، وقال الطبيب لروميو وهو يتناول بيده حقا صغيرا فوق رف هناك :

- هل قلت لك اربعة ريبالات يا سيدى . ان المسحوق الذى في هذا الحق لا يقدر بمال ، ولكنه لا يستعمل الا خارج هذه الدار !

وبعد دقائق كان روميو فى طريقه عائدا الى فيرونا ، ولم يتوقف عن السير الا بعد أن هذه التعب والحزن فى اصيل اليوم التالى ، فتمدد على الارض فى احد الحقول ، ثم نهض بعد الغروب بقليل فاستأنف رحلته !

ودخل المدينة فى عتمة المساء ، ومضى من فوره الى مدفن آل كابليلتي وكان باب المدفن مفتوحا طبقا للتقاليد التى تقضى ألا يغلق الا بعد أسبوع من دفن الميت . وكان معه سراج صغير يضئ بالزيت فأشعل فتيله بقداحته ، ودخل المدفن والسراج فى يده فاذا هو حجرة واسعة جدرانها من الحجر المنقوش ، وفى وسطها تابوتان مفتوحان متجاوران ، وبكل منهما جثة يغطيها كفن ثمين عليه شعار آل كابليلتي .

ومد روميو يده فرفع أحد الكفنين عن وجه الجثة التى يغطيها ، ثم قرب السراج منه فتبين فيه وجه تيبالدو ، فأعاد الكفن الى ما كان عليه مسرعا . ثم اتجه الى الجثة الأخرى فرفع الكفن عنها وقلبه يخفق بشدة وعيناه تدمعان !

وكان عجبه شديدا ، إذ رأى وجهها يفيض بابتسامة عذبة ولم يطرأ عليه أى تغير ، وكأنها فى اغفاءة لذيذة .

وزفر زفرة حري ، ثم أخرج المسحوق السام الذى ابتاعه من الطبيب اليهودي فى مانتو . وتناول به كله مرة واحدة فأحس بأن نارا شبت فى حلقه وصدره ، ولكنه تحلد وانحنى على جثة جوليت المسجاة أمامه ، ثم أمسك رأسها بيديه المحمومتين وطبع على شفتيه قبلة طويلة ، ثم تمتم قائلا :

- الآن .. يلتقى الزوجان الحبيبان . ولن يفرق بينهما أحد !

وكانت عيناه عالقتين بفمها المبتسم ، فأخذه العجيب اذ رأى الابتسامة تتسع رويدا رويدا ، ثم رأى ذراعى الزوجة الحبيبة الميتة كأنما تتحركان !

وحسب أول الأمر أن ذلك ليس سوى وهم صورته له السم الذي تناوله ، ولكن الحركة استمرت تدب في جسد جوليت ، وأخذ صدرها يعلو ويهبط ، فصاح قائلاً :

- جوليت .. حبيبتي جوليت .. ماذا أرى يا الهى ؟!

وجن جنونه اذ فوجئ على أثر ذلك بجوليت وقد استوت جالسة في تابوتها ، ثم فتحت عينيها وأدارتهما حولها ، فلما استقرتا على وجهه ازدادت ابتسامتها ، ثم تكلمت وخاطبته بصوتها العذب الخنون قائلة :

- أهذا انت يا روميو ؟ .. لقد كنت موقنة بأنك ستجىء في الموعد المحدد أيها الزوج الوفي الشجاع !

وتراجع الفتى مذعوراً ، ثم عاد فاقترب من الفتاة الجالسة أمامه تنظر اليه وتبتسم ، وقال وهو يغالب دهشته وحشجة الموت الذي بدأ يعمل في صدره مع السم السارى في دمه :

- جوليت ؟! .. كيف هذا ؟! الست ميتة يا جوليت ؟!

وكان جوابها أن قفزت الى جانبه وطوقته بذراعيها وراحت تغمر خديه وشعره وعنقه بالقبلات قائلة :

- ألم اقل لك في خطابي ؟! .. لقد أماننى الأب لورنزو بالاكسیر الذى أعطانيه . ولكن هذا الموت لم يكن إلا نوما .. وهأنذا قد استيقظت منه كما وعدنى ووعدتك في خطابي ، وعما قليل تغادر فيرونا ونحيا زوجين حرين سعدين ، لا نخشى من رقيب إلا حبيب !

وازدادت الحشجة في صدر روميو ، وقال لها :

- اقتربنى منى لتسمى .. انتى أموت الآن .. ان خطابك لم يصل الى ، وقد جئت الى هنا موقناً بأنك مت حقيقة ، وتزرت أن الحق بك فتناولت سما اشتريته من طبيب يهوى في مانتو !

وهنا صرخت جوليت صرخة عالية ، وقالت وهي تنسج بالبكاء :

- روميو ؟ حبيبى روميو ؟ لا تمت يا روميو .. اننى لا احيا الا لاجلك .. آه يا حبيبى ! .. آه يا زوجى العزيز .. لقد صحت النبوءة اذن فهذا رجل من الشرى اخذ منك مالا ، ثمنا للشر الذى انزله بك ! ثم تشبثت بجسمه الذى ترنح وسقط بجانب جدار القبر ، وراحت تضمه الى صدرها وتمطره بقبلاتها قائلة :

- كلا .. كلا .. لن تموت يا روميو ، وستحيا لتبقى بجانبى !

وفتح فمه وجاهد حتى قال فى صوت متقطع خافت :

- ليس هذا بارداتى ولا بارادتك يا جوليت ، انها ارادة الله !

ثم تراخت ذراعاه ، وتدلى راسه على صدره ، وساد جسمه
الخمود !

وراحت جوليت تناديه ، وتقلب وجهه وذراعيه ولكن دون اية
فائدة !

وفيما هى كذلك لمست يدها الخنجر المعلق بمنطقته فاستلته من
غمده ، ثم قلبته بين يديها ، وغرست نصله حتى نهايته تحت ثديها
ولما أحسست أن الخنجر اخترق قلبها ، واخذ الدم يصعد الى
فمها ، التصقت بجسده الممدد أمامها ، ثم انطرحت عليه ، والصقت
فمها بفمه . وابتسمت لسعادة اللقاء الاخير !

ولما رأى الأب لورنزو هذا المشهد المروع ، استولت عليه الدهشة
واخذته الرعدة . ثم بعث يدعو آل كابلليتى وآل مونتيكى وحاكم
المدينة فجاءوا جميعا الى المقبرة ذاهلين لا يكادون يصدقون ذلك النبا
الغريب الذى سمعوه

وبعد أن انتهى الأب لورنزو من تفصيل الأمر لهم بين الزفرات والانات
وفرط التأثر من الجميع ، قال له الحاكم :

- ايها الراهب الجليل ، لتطب نفسك فقد أديت الواجب
وارضيت الله !

ثم التفت الى السيد كابلليتى والسيد مونتيكى وقال لهما :

- تلك هى نتيجة العناد والتشبث بالنزاع والخصام !

وبكى الوالدان الحزينان ، وتعانقا ، وشاركهما البكاء جميع
الحاضرين .

واحتفلت فيرونا بدفن الزوجين الحبيين فى تابوتين متجاورين
بمقبرة الدير وسط فناء هادئ صغير تحف به أشجار السرو ، والأزهار
والرياحين

وما جاء الربيع حتى كان ضريحا الحبيين قد غطتهما خميلة كثيفة من
الورود والأزهار ، وامتد منهما غصنان ناضران تعانقا فوقهما والتف
كل منهما بالآخر ، وكانت هذه الظاهرة موضع التأمل من رهبان الدير
وزوار الضريحين . وعدوها دليلا على اتحاد روميو وجوليت فى الحياة
وبعد الممات !

فهرس

مقدمة

تصدير للمؤلف

الفصل الأول : عدااء بين أسرتين

الفصل الثاني : الصلح بين العدوين

الفصل الثالث : روميو بين النساء

الفصل الرابع مولد غرام

الفصل الخامس : القبلة الأولى

الفصل السادس : غياب وعودة

الفصل السابع : عهد الحبيبين

الفصل الثامن : وفاء الحبيبين

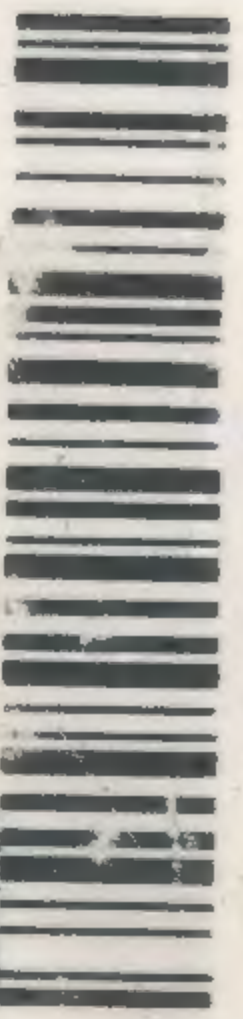
الفصل التاسع : اللقاء الأخير



١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون | ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤

Bibliotheca Alexandrina



0606525

العدد ٣٦

العدد ٣٦

العدد ٣٦

العدد ٣٦